الأعمال الخاصة



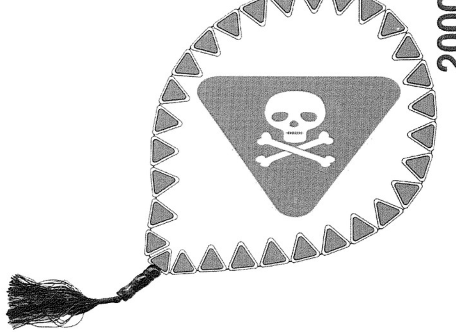
مهرجان القراءة للجميع

عشر سنوات

2000



محمد عبدالمنعم



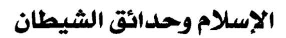
الإسلام وحدائق الشيطان



إهـــــــداء2006

ورثة الكيمياني/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية


الإسلام وحدائق الشيطان

اسم العمل الفنى : الإسلام وحدائق الشيطان

التقنية: معالجة جرافيكية على الكمبيوتر

المقاس: ١٧×٢٤ سم

للفنان :محمد الصباغ

المشرف الفنى لمجلة «روزاليوسف»، وهو واحد من البارزين فى عالم أغلفة الكتب.

لوحة الغلاف

يحتوى الغلاف صورة الكاتب تتصدر أعلى اللوحة وتحتها الاسم.. أما اللوحة فهى تصميم جرافيكى للفنان محمد الصباغ على الكمبيوتر يمثل جمجمة شخص داخل مثلث مقلوب عبارة عن العلامة البصرية الدالة على حقول الألغام تحيطه سبحة حباتها تكرار لنفس العلامة البصرية لحقول الألغام .

محمد عبد المنعم

الإسلام وحدائق الشيطان



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال السياسية)

الاسلام وحدائق الشيطان

محمد عبد المنعم

الغلاف
والإشراف الفنى :
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الاعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ: مؤسسة روز اليوسف
وهيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة»، والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والإبداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على أنطلاق المشروع الثقافى الكبير، وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنوان في حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحا وإقبالا جماهيريا منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى، فتبدأ بإصدار موسوعة مصر القديمة، للعلامة الأثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الإبداعية والفكرية والعلمية والروائع وأمهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة : سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د.سمير سرحان

المحتويات:

الإسلام وحدائق الشيطان

عندما بدأت أكتب فى روزاليوسف سلسلة المقالات التى تحمل نفس عنوان هذا الكتاب كان أن تلقيت رسالة رقيقة من فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى يشيد فيها بما نشر فى هذا المجال، وإلى جانب اعتزازى الكبير بما جاء فى هذه الرسالة فقد كانت هذه الكلمات المشجعة هى الدافع الأساسى وراء فكرة هذا الكتاب، والدافع الأساسى لإضافة المزيد من الأفكار والمعلومات فى هذا الموضوع الحيوى حتى يمكن أن يكون كتابا مفيدا يلفت انتباه المسلمين فى كل مكان إلى ما يدبر ضدنا من مؤامرات تستهدف الإسلام والمسلمين..

وأرجو أن أكون قد وفقت فى ذلك..

وفيما يلى نص رسالة الإمام الأكبر:

« تابعت بسرور كبير سلسلة المقالات الأسبوعية التى كتبها الأخ العزيز الكاتب الكبير الأستاذ محمد عبد المنعم رئيس

مجلس الإدارة ورئيس تحرير مجلة «روزاليوسف» بعنوان «حدائق الشيطان» التى بدأ كتابتها فى افتتاحية مجلة «روزاليوسف» منذ يوم السبت ١٦ صفر ١٤٢١ هـ، الموافق ٢٠ مايو سنة ٢٠٠٠ م، واستمرت فى ستة أعداد متوالية كل أسبوع.

فقد وجدت فيها تحليلا صادقا ودراسة عاقلة تنم عن رؤية متزنة وفهم سديد وعلاج ناجع لظاهرة استغلال التفسيرات الدينية الخاطئة والبعيدة عن الصواب والعقل والمنطق من قبل بعض ذوى المآرب والغرض والهوى، ووصولا لما يتطلعون إليه من جاه أو وجاهة ودون اهتمام بمصالح الوطن أو اكتراث بما قرره الإسلام من مبادئ لحماية الحرمات، والمحافظة على أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم، رغم حرص أصحاب تلك التفسيرات الخاطئة على رفع الشعارات الخادعة والتخفى وراءها، وقد كشفت تلك المقالات وجه الخطورة والانحراف فى تلك الدعاوى عن جادة الحق والصواب وكانت دفاعا فكريا عاقلا عن المفاهيم الدينية الصحيحة والمصالح العليا لهذا الوطن العزيز الذى يحتوينا جميعا بين جوانحه الحانية.

والأخ العزيز الأستاذ محمد عبد المنعم حين كتب تلك السلسلة من المقالات المفيدة كان على دراية واضحة بجذور المشكلة التى يكتب عنها منذ بداية ظهورها على الساحة الدولية فى أوائل القرن الماضى وحتى يومنا هذا، كما وضع

يده على أس الداء فيها، ومكمن الخطر الناشىء عنها وطريقة محاصرته عن طريق الجهود العاقلة والرشيدة والملائمة، وقد أحسن سيادته صنعا حين أشار فى دراسته إلى أن من أهم وسائل مقاومة تلك الظاهرة احترام التخصص العلمى فى مجال الدراسات الدينية على نحو يضمن حمايتها من فضول أولئك الذين يقحمون أنفسهم فيها دون أن يكون لديهم علم صحيح بدين الله، أو فكرة واضحة عن الدراسات المتصلة به، بل دون أن يكونوا مؤهلين لذلك، كما كان منصفا حين أبرز دور الأزهر الشريف فى خدمة القيم الإنسانية العليا، ووفاء حقه فى مجال المحافظة على الدين الحنيف ومصالح المجتمع، ومعلوم أن الأزهر فى هذا المجال لم ولن يُسبق فيه، ولهذا فإننى أشكره وأثنى على ما كتب، وأعتبره من الأعمال الفكرية النافعة للدين والوطن، وأدعو الله أن يوفقه ويسدد خطاه، وأن ينفع بما كتب، كما أدعوه – سبحانه – أن يجعلنا من الذين يقولون فيعملون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيقبلون، ويقبلون فيؤجرون، هذا وبالله التوفيق».

كانت هذه هى رسالة الإمام الأكبر. التى توضح بجلاء قاطع أن هذا الكتاب هو دفاع فكرى عن المفاهيم الدينية الصحيحة.

وأرجو أن أكون قد وفقت فى تلك المهمة.

المؤلف

العقل الإنسانى وفطرة الإيمان

ماذا فعلت الخرافة بالإنسان ؟

يستطيع كل واحد منا أن يقرأ مجلدات بأكملها عن الأديان والعقائد السماوية ومدى تأثيرها على الإنسان فى كل تصرفاته وسلوكه، وأهم من ذلك مدى تأثيرها على العقل والنفس.

المجلدات متاحة للجميع، والقراءة فى متناول الجميع ولكن قد يكون أبلغ ما قيل وما ورد فى هذا المجال هو عبارة صغيرة من بضع كلمات تقول: «عندما تمكن الإنسان من الوقوف على قدميه بعد سنوات طويلة أدرك بغريزته أن الوضع الصحيح هو الوقوف على كلتا قدميه، وأن الوقوف على قدم واحدة شيء غير طبيعى ولايمكن الاستمرار فيه بأى حال من الأحوال. نفس الشيء بالنسبة للإيمان، فعندما يؤمن الإنسان يشعر بالراحة، وبأن الأمور فى سياقها الطبيعى، أما عندما يفقد إيمانه فإنه يشعر بالعكس، تماما مثل الإنسان الذى يقف على قدم واحدة، وهى الحالة التى لايمكن أن يستمر عليها طول الحياة!

وتلك فكرة بسيطة وموجزة، وفى الوقت ذاته نافذة ومقنعة، ولعلها كانت وراء العبارة الرائعة التى ذكرها الكاتب المسرحى الأمريكى الشهير تينسى ويليامز فى مسرحية «ليلة الأجوانا» والتى تقول: «إن أقدم مشكلة للإنسان هى الحاجة إلى الإيمان».

فمنذ فجر التاريخ، وقبل ظهور الديانات السماوية كان الإنسان دائما يتجه بعقله ووجدانه ليؤمن بشيء أقوى منه، يستلهم منه القوة والدافع إلى حياة يعلم تماما نهايتها المؤلمة للجميع بدون استثناء، يتساوى خلالها الغنى والفقير، والقوى والضعيف، والأبيض والأسود والأصفر.

وقبل ظهور الديانات السماوية كان الإنسان يمارس العبادة فى إطار الطقوس



الإرهاب.. كما تخيله الفنان عبدالعال

والشعائر والأضحية، وبذلك لم تكن العقيدة مسألة وحى سماوى أو دعوة من أحد، ولكنها كانت قبول بالاشتراك والمساهمة فى ممارسة مجموعة غريبة من المظاهر السلوكية كإطار للطقوس التى تتضمن تقديم القرابين بهدف إرضاء وتكريم آلهة غريبة، كالشمس والأمطار والرعد والأصنام. وهكذا يؤكد لنا التاريخ إنه منذ نحو مليونى سنة شعر الإنسان بحاجته إلى «الإيمان» وبحاجته الشديدة للعكوف على مظهر من مظاهر العبادة!

فى هذه الحقبة القاسية من تاريخ البشرية ـ أى قبل ظهور الأديان السماوية

ـ نجد الإنسان وقد عانى العذاب العقلي والوجدانى كما عانى فى نفس الوقت من التعذيب والتضحية التى تمثلت بشكل أساسى فى تقديم القرابين تقربا من القوة المجهولة التى تقف وراء هذه الحياة وترضية لها حتى تتلطف به ككائن إنسانى ضعيف يقف وحيدا فى هذا الكون.

وفى الهند القديمة كانت الإلهة «كالى» تطالب بقرابين من البشر وبالذات من بين أرقى الطبقات الاجتماعية، وكان هؤلاء الضحايا يذهبون إلى الموت وهم فى أجمل سنوات العمر، وفى أغلب الأحوال كانوا يفضلون أن يقتلوا أنفسهم بأيديهم كما لو كانوا يريدون مزيدا من الترضية لتلك الإلهة المجنونة!

نفس الشيء فى المكسيك عندما كانت الإلهة «شيكوميكواتل» تعتبر السيدة العظمى للكون، وكان الجميع يعتقدون أنها قضت بإنزال كل أنواع المصائب على بنى الإنسان، وبصفة مستمرة، عقابا لهم على عدم طاعتهم، لذلك كان الأتباع يحاولون دائما التخفيف من حدة غضب الإلهة بإقامة الأعياد والاحتفالات الضخمة، وكانوا يختارون أجمل الفتيان والفتيات ويلبسونهم أرقى وأزهى الملابس؛ ثم يقومون بذبحهم ترضية لهذه الإلهة الغريبة. ويؤكد لنا التاريخ أن واحدا من كل ١٥ مكسيكيا فى هذه الحقبة المظلمة كان على يقين من أن مصيره سينتهى أمام «المذبح المقدس».

ومن الغريب أنه على رغم عدم اتصال العالم القديم وعزلة الناس عن بعضها فى كل بقاع الأرض، فإن هذه الظاهرة كانت موجودة فى كل مكان، ولكن بهدف مختلف تماما.

فكان الجرمان يقدمون القرابين للحصول على صيد وفير، واليونانيون يقدمون القرابين أيضا لمجرد استرضاء الإلهة «أبوللو» أو «زيوس»، والمصريون القدماء يلقون بأجمل فتياتهم فى النيل ليضمنوا وفرة مياهه وبالتالى وفرة المحاصيل!

والأغرب من هذا أن عالما نفسيا كبيرا هو «كارل جوستاف يونج» جاء فى القرن العشرين ليؤكد لنا أهمية تلك الأساطير والخرافات الدينية التى أنتشرت قبل ظهور الأديان السماوية، وأن المضمون القصصى لتلك الأساطير يختفى وراءه كل ما تنطوى عليه أصول الفكر الإنسانى السابق للتعقل. ويؤكد «يونج» أن ما يصدر من بعض المصابين بالمرض النفسى العقلى الذى يسمى «شيزوفرانيا» أو الأمراض العقلية الأخرى المصحوبة بأعراض الهلوسة، كل هذه الأعراض تتضمن روايات تنطبق نصوصها ومشاهدها تطابقا حرفيا مع مضمون الأساطير القديمة اليونانية أو اللاتينية أو الهندية، وذلك فى الوقت الذى لم يسمع فيه هؤلاء المرضى إطلاقا عن تلك الأساطير القديمة!!

وتؤكد الأبحاث العلمية الحديثة أن الأساطير ما هى إلا تجمعات غير واعية تتركز فى العقل الباطن، وأن الأساطير الرئيسية التى تتعلق بالعناصر الطبيعية مثل الماء والنار والهواء والأرض، أو تلك التى تتعلق بأحداث الحياة الإنسانية مثل الحب والولادة والموت، كل هذه الأساطير موجودة بداخلنا دون أن ندرك وجودها. وفى حالة ما إذا أصيب الإنسان بمرض عقلى أو نفسى؛ فإن مدلولات هذه الأساطير تبرز فجأة من «المخازن الهائلة» الموجودة فى أعماقنا، وحتى بدون مرض نفسى أو عقلى فإن تلك الأساطير ومدلولاتها تنساب من أعماقنا عندما ننام ونحلم، كما لوكان إنسان العصور الأولى وأفكاره الغامضة مازال حيا وكامنا فى أعماق أعماقنا!

وقد ظهرت فى آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا مئات من المعتقدات الدينية، لكن نفوس البشر لم تعرف الهدوء والسكينة إلا بعد أن نزلت الأديان السماوية، ووجد فيها الإنسان الإجابات الصحيحة التى أراحت عقله بعد عناء استمر آلاف السنين. ولأن شيئا لاينتهى ولايستقر فى هذا الكون ـ بسبب التطور المستمر المتلاحق ـ فإن المشاكل والأزمات تظهر بين الحين والحين. وطبقا لأقدم قانون فى الوجود «البقاء للأصلح» فإن البعض يجد القوة والحيلة

التى تمكنه من الاستمرار وحل هذه المشاكل، فى حين أن البعض الآخر يفتقر إلى تلك القدرات؛ فنجده ينسحب إلى الوراء وإلى داخل نفسه. وهناك فى أعماق النفس البشرية الغريبة يلتقط هذا الإنسان ما يهواه من أفكار بالية غير عصرية ويتعايش معها بشكل هوسى، مؤمنا بها الإيمان كله، لأنها الملاذ الأخير بعد أن تحطم على المستوى الشخصى، أو على مستوى أكبر عندما يتحطم مجتمع بأكمله!

ومع الأزمات الاقتصادية التى شهدها العالم فى الثلاثينيات، وتفشى البطالة وانخفاض مستوى المعيشة نجد ألمانيا وقد استمدت من مستودعات الماضى السحيق والمبهم فكرة النازية، وكذلك استمدت إيطاليا الفاشية، فى حين أن فى اليابان كان الملاذ دينيا ممثلا فى أيديولوجية «الشنتو» التى ترتبط بها عقائد اليابانيين، حتى قبل عصر البوذية فى امبراطورية الشمس المشرقة.

والشنتو نظام تعليمى أخلاقى يتصل بالمنهج القومى وتاريخ شعب اليابان وينص بصفة خاصة على تأليه الأباطرة ، فالامبراطور ينحدر من سلالة الآلهة، وهو نفسه إله غير مرئى، غير ملموس، لايمكن سبره، شامل العلم، وكامل القدرات، ويمكننا أن نتناول هذا المذهب بالتفصيل كنموذج معبر عن مفهوم التطرف الدينى.

أصبح الشنتو أداة مثالية فى إطار القومية العسكرية اليابانية. وفى الثلاثينيات كان كهنة الشنتو يمرون فى مواكب تجوب شوارع العاصمة طوكيو ويتقدمون فى صفوف منتظمة. وكان على المارة أن يحيوهم ويستغرقوا فى التأمل بمجرد رؤيتهم، ثم سرعان ما تحول هؤلاء إلى حزب سياسى مستبد أشاع الرعب القومى فى البلاد وأجبروا الشعب على السجود يوميا فى اتجاه القصر الامبراطورى. وسرعان ما أدى هذا التطرف إلى الصدام مع الولايات المتحدة فى «بيرل هاربر» وما تلى ذلك من انتصارات سريعة أثارت النشوة وأشعلت الهوس فى نفوس اليابانيين، ثم جاءت بعد ذلك - كما نعرف - الهزائم المتتالية لليابان، والتى انتهت باستسلامها للأمريكيين.

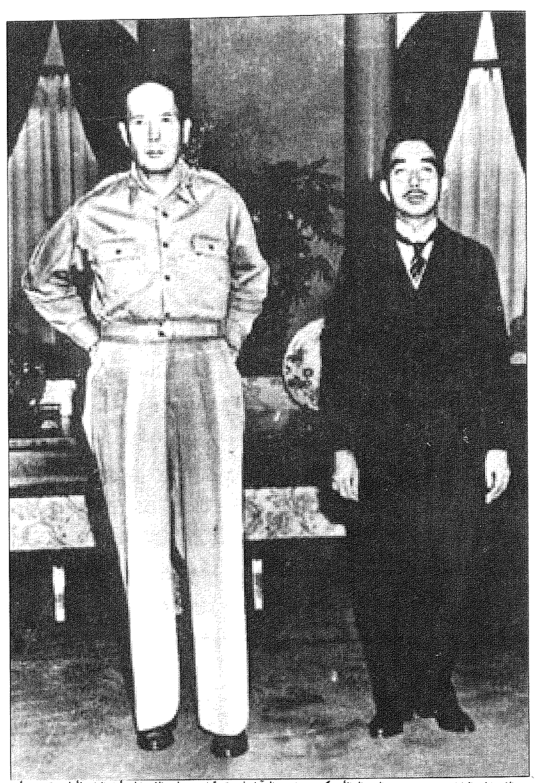
وعندها فقط تبين لليابانيين أن الامبراطور ليس إلها وأنه مرئى، وظهر أمام الجميع يوقع وثيقة الاستسلام!

وحتى اللحظات الأخيرةمن الحرب كانت طائفة الشنتو تؤلف هذا المزيج الغريب من أساطير الماضى وحقائق الحاضر. وعندما بدأ الأسطول الأمريكى يغزو جزيرة يابانية تلو الأخرى واجهوه بحفنة من الطيارين أسموهم «الكاميكاز» (ومعناها باليابانية الرياح المقدسة) نسبة إلى أسطورة الرياح السماوية التى هبت فى الماضى البعيد فأغرقت أسطول المغول. وراح مئات الشبان فى هذه الطلعات الانتحارية المهووسة. وكانت الهزيمة أمرا محتماً. وهى الهزيمة التى لم يستطع أن يتصورها المتطرفون الميالون إلى الهوس بطبيعتهم وبالمعتقدات التي يؤمنون بها.

وبعد الهزيمة اختفى بالطبع كهنة الشنتو واختفى معهم هذا التطرف العقائدى، وبدأ الشعب اليابانى ينظر بموضوعية إلى الحقائق التى يعيش فيها. ثم بدأ يعمل ويبنى من أجل المستقبل. وبهذا الأسلوب فقط تغلب اليابانيون على كافة مشاكلهم. وأصبحوا الآن كما نرى جميعا عملاقا اقتصاديا يخشاه الجميع، وقوة حقيقية بعيدة تماما عن مظاهر العنف، بل وبدون قوة عسكرية حقيقية.

وإذا كان الأمريكيون قد خرجوا منتصرين فى صراعهم مع اليابان فى الحرب العالمية الثانية عموما، ثم بعد ذلك فى حرب كوريا، إلا أن الموقف لم يكن هكذا فى حرب فيتنام، فقد شعر الشعب الأمريكى لأول مرة بنوع من الإخفاق.

وخلال زيارة أخيرة للولايات المتحدة لاحظت ملامح التطرف الدينى فى كثير من الأماكن. فالتليفزيون يفتح أبوابه لوعاظ متشنجين هم أشبه «براسبوتين» روسيا، وفى حى «جورج تاون» بقلب العاصمة واشنطن شاهدت مرارا مجموعة من الشبان يرتدون جلابيب بيضاء ويدقون دفوفا وطبولا وقد حلقوا شعر رؤوسهم تماما، ويتمتمون بكلمات غريبة ومبهمة،



الامبراطور اليابانى هيروهيتو يزور الجنرال الأمريكى دوجلاس ماك آرثر فى مقر قيادته.. ظهر الامبراطور أمام الناس لأول مرة وتبين أنه إنسان عادى ضئيل الحجم وأنه ليس إلها بالمرة!

وعندما سألت عن هذه الظاهرة قالوا لى أنهم ينتمون إلى طائفة تسمى «راجا كريشنا»!!

وبالطبع فالعالم كله لا ينسى مذبحة الأب جونز الذى أقنع أتباعه بابتلاع الطعام المسموم، وانتحروا جميعا نتيجة فكرة خاطئة، واستطاع هذا الشيطان الذى يرتدى زى قسيس أن يدخلها فى رؤوس مجموعة من الأبرياء -والأغبياء أيضا- فلاقوا حتفهم جميعا. ولأن حجم المشاكل التى واجهها المجتمع الأمريكى - ولايزال يواجهها حتى الآن - كان صغيرا فإن ظاهرة التطرف كانت أيضا ضئيلة. واستمر غالبية المجتمع هناك فى العمل الإيجابى من أجل التقدم والازدهار.

أما فى إيران فقد وجدنا مشاكل نظام الحكم السابق وقد دفعت الناس هناك إلى أسطورة من أعماق التاريخ وهى أسطورة «الإمام الغائب»، فتطرف الإيرانيون والتفوا حول الخومينى. وبعد أن كانت إيران دولة عصرية قوية فإذا بها دولة تتمزق أوصالها اقتصاديا وعسكريا واجتماعيا.

وفى العالم العربى كان الحدث المحرك على مسرح الأحداث هو هزيمة يونيو ١٩٦٧ التى أضاعت الكبرياء العربى لفترة طويلة، ونقول هنا «الحدث المحرك» لأن هناك خلفية قديمة سنتناولها فيما بعد، ولكن بشكل عام فإنه إذا كانت ثروات البترول وعدم الاشتراك المباشر فى هذه الحرب الكئيبة قد أوجدت متنفسا لبعض الدول العربية، فإننا فى مصر وبعد أن أخذنا الهزيمة على عاتقنا كان الموقف مختلفا، وزاد من صعوبة الموقف تدهور الأوضاع الاقتصادية وما صاحبها من فساد، كل هذه العوامل أدت إلى ارتداد أولئك الذين ضعفوا عن الاستمرار فى تيار الحياة وإصلاح الموقف - إلى الأساطير والمعتقدات الغريبة عن الإسلام الذى يتصف بالعصرية المستمرة والتى ستتواكب مع الزمن إلى الأبد.

لكن لأن المصريين كما وصفهم أحد الكتاب الغربيين يتمتعون بقدرة هائلة على التحمل والصبر بدرجة لا يحلم بها أى إنسان فى العالم، فهم قد

استطاعوا حتى الآن أن يصمدوا أمام كافة هذه المشاكل والصعاب.

وإن كانت ظاهرة التطرف قد ظهرت أخيرا على سطح الحياة، فهذا نوع من الظهور الذى يسبق الاختفاء النهائى. ودليل ذلك أننا بعد الهزيمة المفجعة لم نتقاعس ونرتد إلى أعماق الماضى لنمزج الأساطير بالواقع ونقتحم خط بارليف مثلا مسلحين بالسيوف والرماح والخيول، ولكن الذى حدث هو أننا قفزنا إلى الأمام، وتسلحنا بالإلكترونيات والعلوم الحديثة، وبذلك نجحنا فى التغلب على الهزيمة وأنجزنا عملا جماعيا إيجابيا عظيما فى أكتوبر ١٩٧٣ يصلح تماما ليكون بداية لتوحيد صفوف الأمة ودفعها فى موكب الحياة.

وبعد هذا الإنجاز الرائع، لم نتقاعس، بل اتجهنا إلى السياسات المدروسة الثابتة بدلا من القرارات اللحظية والرغبات الطارئة. وبدأنا فى حل المشكلات المتراكمة، وفى مقدمتها الأوضاع الاقتصادية والإصلاح الاجتماعى وبناء البنية التحتية لأية دولة عصرية. وهذا فى حد ذاته دليل دامغ على أن الشعب هنا لم ينسحب ويرتد إلى الماضى ليتقوقع هناك، لكنه جابه بشجاعة وإيجابية التحديات الصعبة التى ألقتها عليه الأقدار.

و لذلك لم تسقط مصر ولن تسقط، مادمنا قد تمسكنا جميعا بالنظر إلى الأمام وعدم الالتفات للخلف. وكل ذلك يعنى أننا نسير مع التيار الصحيح للحياة، وهو تيار ذو اتجاه واحد فقط يسمونه : المستقبل.

ولكن كيف ومتى نشأ التطرف فى مصر؟

ومن يقف وراءه؟

رحمة من السماء.. ونقمة من أنفسنا!

بنزول الأديان السماوية حصل الإنسان أخيرا على غايته، وعلى إجابات شافية رسخت أقدامه فوق الأرض، وساعدته على مجابهة المصير وفهم ما يدور حوله، وإدراك ما يضمه الكون من ألغاز وأسئلة احتارت فيها أقوى

العقول قاطبة بين سائر البشر فى سائر الأزمنة.

وإذا كانت اليهودية قد تميزت بالإيغال المادى والدلال من جانب بنى إسرائيل على أساس أنهم شعب الله المختار، وإذا كانت المسيحية فى بدايتها قد تميزت بالاستشهاد والمثالية «اليوتوبية» والتسامح المفرط الذى يقوم على تقديم «الخد الأيمن» لمن يصفعك على الخد الأيسر، فقد تميز الإسلام فى بداية ظهوره بالتوازن الشديد وبقوة دفع هائلة استطاعت للمرة الأولى فى التاريخ أن تجمع شتات قبائل متفرقة فى البوادى والصحارى، وتجعل منهم امبراطورية هائلة هزمت القوتين العالميتين فى ذلك الوقت، امبراطورية فارس وامبراطورية الروم!. وظلت هذه القوة سائدة تغزو وتنتشر فى أرجاء الأرض كلها، ولم يستطع أحد أن يوقفها إلا من داخلها نفسها عندما تفرقت وتشيعت وانقسمت على ذاتها، فجاءها الخطر، وجاءها التدهور والانكماش.

وفى العصر الحديث كان الاستعمار البريطانى هو الذى اهتدى إلى هذه الحقيقة، وكان بمثابة العبقرية الشريرة التى ابتدعت تكتيك العبث بالمشاعر وبالمعتقدات الدينية للشعوب، عملا على دفع هذه الشعوب إلى هاوية سحيقة لا خروج منها ، ليظل البقاء الأبدى للامبراطورية التى لاتغرب عنها أشعة الشمس . فعلوا ذلك فى آسيا وطبقوا نفس السياسة الشريرة فى أفريقيا وبصفة خاصة فى منطقة الشرق الأوسط وبصفة أكثر خصوصية فى المنطقة العربية، وفى مصر بالذات!

وإذا كان سادة الاستعمار الإنجليزى يهدفون أساسا فى استراتيجيتهم الملتوية إلى تقسيم الشعوب والمجتمعات عملا بالمبدأ الشهير «فرق تسد»، فإنهم فى إطار فكرة التقسيم والعمل على تفكك الدول والشعوب، التى تخضع لاستعمارهم البغيض، عن طريق إثارة النعرات الدينية والطائفية، فى إطار هذه الفكرة الجهنمية كانوا أشد سخاء مع العالمين العربى والإسلامى عندما جاءوا باليهود من شتات أوروبا وأمريكا وآسيا واستراليا،



مجموعة من عصابات الأرجون مسلحة بالبنادق «لى آنفيلد» بريطانية الصنع ويتقلدون الزى العسكرى البريطانى

من مختلف أركان الدنيا، ليزرعوهم فى قلب الكيان العربى والإسلامى حتى تزداد نيران الطائفية فى الأرض التى كانت مهد الأديان، وحتى يضمنوا انقسام هذه المنطقة الحيوية إلى أبد الآبدين.

وكلنا يعلم كيف استطاع البريطانيون أن يحققوا ذلك فى إطار ما يعرف باسم «وعد بلفور»، وكلنا يعلم كيف جاءوا باليهود من هنا وهناك ليمكنوهم من أرض فلسطين. ولم تكن القوات البريطانية لتنسحب من جزء من فلسطين إلا بعد أن تضمن تمكن القوات اليهودية من هذه الأراضى. بل إنهم لم يتركوهم إلا بعد أن ضمنوا لهم ميناء على البحر الأحمر، يعرف الآن باسم «إيلات».

وحتى هذا الوقت كان اليهود مثلنا لعبة فى أيدى البريطانيين، ولم يكن



«بن جوريون» يعلن قيام إسرائيل

الاستعمار البريطانى يغدق عليهم بأراضى دولة جديدة لبنى صهيون حبا فى صهيون أو بنيه أو غيرهم من أجناس الأرض، ولكنهم كانوا فى الأساس يخططون لتقسيم الشعوب والمنطقة العربية والإسلامية ضمانا لبقائهم فيها أطول فترة ممكنة. ولم يكن سلاحهم فى ذلك قوات ورجالا وعتادا (لأنهم فى النهاية محدودو القدرات تعدادا وعتادا) بل كان سلاحهم الأساسى والبالغ الفاعلية فى الوقت ذاته هو تأليب الطوائف الدينية على بعضها (المسلمين والهندوس فى الهند والمسلمين والمسيحيين فى الشرق الأوسط والمسلمين والمسلمين فى العالم العربى المستعد دائما للصراع الداخلى لأتفه الأسباب).

وهكذا كان الاستعمار البريطانى يسكب البنزين على النار عندما جاء باليهود إلى الشرق الأوسط، وسط ترحيب حار من كافة أرجاء العالم المنافق الذى سعد أساسا بالتخلص من اليهود لسبب أو لآخر، ولو أنهم كانوا ومازالوا يتشدقون بمأساة الشعب اليهودى وضرورة إنشاء وطن قومى لهم.

ولما كانت مصر هى قلب العالم الإسلامى، القلب الحقيقى والدائم بغض النظر عن المناورات السياسية المرحلية، فقد كانت دائما تحت المجهر البريطانى، وكان نصيبها فى المؤامرات أكثر سخاء.

فى هذا المفهوم فطن الاستعمار البريطانى إلى حقيقة عبقرية تتعلق بالمجتمع المصرى وحده، وأن الشعب المصرى يختلف تماما عن شعوب باقى المستعمرات البريطانية، حيث يشكل أقباطه ومسلميه نسيجا واحدا لايمكن فصله، وفى ذلك قال اللورد كرومر أن تجربته الخاصة تقوده إلى عدة نتائج منها أن القبطى المصرى اكتسب خصائص أخلاقية يتحلى بها المسلم المصرى وأنه بوجه عام فإن «الخلاف الوحيد بين القبطى والمسلم فى مصر هو أن الأول مصرى يتعبد فى كنيسة، بينما الآخر مصرى يتعبد فى مسجد». ومن هنا ركز الاستعمار البريطانى على اللعب على أوتار الدين الإسلامى من الداخل، وليس تأليب المذاهب والطوائف على بعضها كما



المستوطنون اليهود بدأوا نشاطهم البغيض مع بداية الدولة العبرية.. ومازالوا حتى يومنا هذا !!

فعلوا فى المستعمرات الأخرى.

وتحت هذا المجهر درس الاستعماريون البريطانيون جيدا مختلف التيارات والمذاهب الإسلامية. وكانت سعادتهم غامرة عندما عثروا على بغيتهم في أحد المذاهب المدسوسة التى تجعل من الإنسان كيانا غريبا لا هو بالروح ولا هو بالجسد، لا هو فى الدنيا ولا هو فى الآخرة ولكنه هنا وهناك فى آن واحد، كيانه منقسم وعقله منقسم ووجدانه منقسم، يحيا فى حالة ما بين الوعى واللاوعى (نيرفانا) أو باختصار شديد فى حالة نموذجية ليصبح مطية وفريسة للاستغلال وعدم الاكتراث بما يجرى حولها، فيغتنم المستعمرون ذلك ليحصلوا على كل شيء وينعموا بكل شيء، بينما صاحب الحق والأرض يعيش فى تيه كما لو كان فى غيبوبة مرضية.

فى هذا الإطار أيضا رأينا أن الاستعمار البريطانى قام بتشجيع إقامة حركة الإخوان المسلمين فى مصر خلال العشرينيات وذلك بمدينة الإسماعيلية. ولم يكن يهدف فى ذلك بالطبع إلى إعلاء كلمة الإسلام والمسلمين، بقدر

ما كان يهدف إلى أغراض خاصة تحقق بالدرجة الأولى أهدافه ومآربه. وإذا وضعنا فى الاعتبار أنه خلال حرب ١٩٤٨ بين مصر والعرب من جانب وإسرائيل من جانب آخر، كان الإخوان المسلمون يلعبون دورا أساسيا فى هذه الحرب. وإذا عدنا بالذاكرة إلى حقيقة أن إسرائيل حتى ذلك الوقت كانت صنيعة وخليقة بريطانيا، إذا وضعنا هذا فى الاعتبار فإن صورة القتال والنيران الملتهبة تكون هى نفسها الهدف المنشود الذى سعت بريطانيا الاستعمارية لتحقيقه.

وقد اقتصر حديثنا حتى هذه اللحظة على الاستعمار البريطانى، بينما يقول التاريخ أن بريطانيا وفرنسا كانتا القوتين الاستعماريتين فى العالم وأنهما اقتسمتا فيما بينهما منطقة الشرق الأوسط والعالم العربى، إذا كان التاريخ يقول ذلك، فهذا صحيح جدا، ولكنه يقول أيضا أن الفرنسيين كانوا من الغرور والكبرياء الزائد جدا جدا على حده بحيث إنهم كانوا يعتبرون استعمارهم للشعوب هو فى حد ذاته نعمة كبرى لهذه الشعوب البائسة، ومنحة لهم من فرنسا العظيمة! أرض الحرية والإخاء، والمساواة!!

هكذا تكونت جذور التطرف الدينى فى العالمين العربى والإسلامى.

ولكن بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها كان لهذه الجذور أن تنمو بطريقة أخرى تختلف تماما عن أسلوب «الزرع الأولى» الذى اتبعه البريطانيون والذين خرجوا من الحرب العالمية الثانية وقد خسروا لقب «إحدى القوتين العظميين» لأن الحرب الثانية جاءت ـ من بين ما جاءت ـ بقوتين عظميين جديدتين هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى.

ومع أن موسكو وواشنطن كانتا الحليفتين الأساسيتين اللتين حققتا نصر الحلفاء على قوات المحور، إلا أنه عملا بالقاعدة الأزلية «حلفاء الأمس أعداء اليوم» فإن الدولتين بدأتا فى التنافس والصراع للانفراد بالسلطة والقوة المطلقة.



ولأنهما قوتان غشيمتان «بمعنى حداثة العهد بالقوة التى اكتشفاها معا وفجأة فى نهاية الحرب العالمية الثانية» فقد كانت ـ ومازالت ـ لهما أخطاء قاتلة.

بدأت القوتان الجديدتان فى الانطلاق شرقا وغربا لفرض سيطرتهما هنا وهناك، وتركزت أنظارهما ـ بالطبع ـ على منطقة الشرق الأوسط، حيث تفجرت الثروة البترولية الهائلة التى أصبحت الشريان الرئيسى لحضارة العالم الغربى.

فجأة أصبحت منطقة الشرق الأوسط ـ ومازالت حتى الآن ـ هى المنطقة الغنية بالثروات التى لا غنى لدولة عظمى عنها حتى تضمن دوام القوة والعظمة. وتدريجيا بدأ الصراع بين واشنطن وموسكو لفرض سيطرتهما

على هذه المنطقة من العالم.

وبطبيعة تكوين المنطقتين العربية والإسلامية فقد كانتا أكثر استعدادا بكثير لسيطرة العالم الغربى، وهكذا بدأت واشنطن تكتسب قواعد وحلفاء لها هنا وهناك فى أطراف العالم العربى، بينما الدب الروسى ينظر فى لهفة، ويقتصر دوره على الفرجة من بعيد.

وظلت الأوضاع على ماهى عليه حتى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ التى طلبت السلاح من أمريكا، فقوبل الطلب بالرفض. وبقرار ثورى اتجهت مصر إلى الاتحاد السوفيتى طلبا للسلاح، فكان أن سنحت أخيرا الفرصة التى انتظرها السوفييت ليحققوا الحلم القديم للينين فى تجاوز حدودهم المغلقة وصولا إلى المياه الدافئة. حدث هذا فجأة بين يوم وليلة وبسبب قرار غشيم من واشنطن ووجد السوفييت أنفسهم فى قلب العروبة والعالم الإسلامى، فى قلب القاهرة.

وبعد صفقة الأسلحة السوفيتية لمصر، جاء قرار بناء السد العالى فكان أن ثبت السوفييت وجودهم فى مصر، وبالطبع فجميعنا يعرف تطورات الأمور حتى حرب يونيو ٦٧ ثم قرار السادات التاريخى بطرد المستشارين والعسكريين السوفييت من مصر عام ١٩٧٢.

ـ بعد هذا التاريخ ـ بدأ الأمريكيون يفكرون فى إصلاح ما فات والعودة إلى مصر، ولم يتحقق لهم ذلك إلا بعد حرب ١٩٧٣.

على أن أكثر ما يهمنا فى هذا المجال هو أن عودة الأمريكيين اقترنت بدراسة جادة للأسباب التى أدت إلى القطيعة بين مصر والاتحاد السوفيتى، والتى انتهت بطرد السوفييت من مصر بقرار من الرئيس الراحل أنور السادات.

ووجد الأمريكيون أن السبب الرئيسى الذى حال بين مصر وبين الوقوع فى الشيوعية، كان أولا وأخيرا تمسك المصريين بالدين الإسلامى ذلك أن

المذهب الشيوعى ينص فى أول مبادئه على أن الدين هو أفيون الشعوب.

من هنا بدأ الأمريكيون يشجعون الاتجاهات الإسلامية لحصار المد الشيوعى بالمنطقة، وفى الوقت ذاته بدأ الشيوعيون يصححون أخطاءهم ويندسون بين التيارات الإسلامية لامتصاصها واستخدامها كواجهة للوثوب إلى السلطة، التى هى هدف الجميع.

وكما رأينا فإن تشجيع الأمريكيين للتطرف والمغالاة فى المشاعر الدينية أدى فى النهاية إلى سقوط الشاه وظهور الخومينى فى إيران، بينما أدى نفس الاتجاه فى مصر إلى ازدهار الجماعات المتطرفة واغتيال السادات نفسه، وذلك فى الوقت الذى انشقت فيه الأرض لتبتلع الشيوعيين لا لشىء إلا لأنهم تخلصوا من القمصان الحمر واختفوا تحت العباءة واللحى الطويلة فى أبرع مناورة فى تاريخ الخداع الإنسانى.

فى هذا الإطار وحده يمكن أن ننظر إلى حرائق التطرف الدينى المتمثلة فيما جرى فى لبنان، وفيما شاهدناه فى القاهرة من أحداث عنف لم نشاهدها من قبل، وفيما رأيناه من حرب مجنونة بين المسلمين والمسلمين فى الخليج، وفيما رأيناه من أحداث مخزية ومشينة فى قلب الحرم المكى ذاته.ووسط هذا الجنون الشامل، نجد أن بعض المجانين يغذون تيار التطرف الدينى ـ لأغراض سياسية ـ من دول عربية وإسلامية أخرى، وهذا ما يصل بالجنون إلى حد لا شفاء منه.

وإذا كان لنا أن نقول كلمة فى هذا المضمون، فإننا نذكر الجميع بأن أبرز وأوضح سمات الفكر والطبيعة الحالية للمصريين بعد ممارسة الحياة لفترة استغرقت أكثر من سبعة آلاف عام، أبرز هذه السمات أن مصر تشبعت بكل جوانب تنوع التجربة وبكل أنواع الصراع فى الوقت ذاته، تنوع نتيجة تعدد اتجاهات وتجارب وخبرات وأحداث ومذاهب، وصراع نتيجة تباين الاختلاف والتنوع بين هذه التجارب والأحداث.

وإذا كانت هذه الظاهرة قد تصور للبعض حالة من الضياع والتردى واليأس، فإنها فى الوقت ذاته تصور للإيجابيين والعقلاء ثراء، وخصوبة، ورخاء، وحيوية الفكر المصرى الذى عانى ما عانى، ولكنه فى النهاية قادر على الرد والحسم والعطاء.

لذلك فإن كل السهام التى صوبت نحونا ارتدت فى النهاية إلى من أطلقها. وأصبح الإرهاب ظاهرة دولية تعانى منها أمريكا، كما تعانى منها أصغر دول العالم، فنحن بعد كل شيء نعيش فى عالم صغير تنتقل التجارب فى أرجائه بحلوها وبمرها.

ولكن كيف زرعوا التطرف عندنا؟

وكيف عملوا على نموه؟

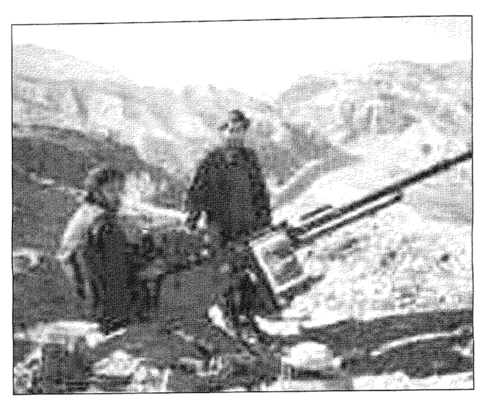
«قوس الفوضى» الأمريكى و«قوس الفرص» السوفيتى!

أعتقد أن أحدا منا لا يختلف مع الآخر على أن منطقة الشرق الأوسط هى مسرح رئيسى للصراع العالمى المستمر بين الشرق والغرب.

وإذا كنا قد تنبهنا متأخرين إلى أشكال من هذا الصراع مثل الاستعمار المباشر، ثم استنزاف الثروات وعلى رأسها بترول العرب، ثم القواعد العسكرية فالاستقطاب إلى دوائر النفوذ، إذا كنا تنبهنا إلى هذه الأشكال واحدا تلو الآخر، فإن هذا الانتباه كان فى كل مرة يأتى متأخرا. بمعنى أننا كنا نحارب الاستعمار فى الوقت الذى كانت تستنزف فيه ثرواتنا، وعندما بدأنا نحرص على تلك الثروات كانت القواعد الأجنبية قائمة داخل أراضى معظم دول المنطقة، وهكذا.

وفى الوقت الذى كانت فيه معظم دول عدم الانحياز تسعى للانضمام إلى هذا المعسكر أو ذلك، بل إن بعض هذه الدول حاول أن يكون أكثر ذكاء مستفيدا من كلا المعسكرين، فى نفس هذا الوقت فإن أحدا لم يدرك أن الصراع العالمى الدائم بين الشرق والغرب اتخذ منذ سنوات طويلة شكلا جديدا تماماً بالنسبة للمسرح الكبير فى الشرق الأوسط، شكلا شيطانيا اخترق حاجز أنبل القيم التى عرفها الإنسان : الأديان السماوية.

لقد كان الشرق الأوسط هو مهد الأديان السماوية الثلاثة:اليهودية والمسيحية والإسلام، وكان الشرق الأوسط يزهو دائما بهذه الحقيقة التاريخية، وبالسماحة والهدوء والاستقرار التى سادت قرونا بسبب هذه الرسالات السماوية، أما الآن فقد نجح المخطط الشيطانى فى الوقيعة بين الجميع، أولا بالحرب بين اليهود والمسلمين «بعد زرع إسرائيل فى



زبيجنيو بريجنسكى مستشار الرئيس الأمريكى للأمن القومى قرر تشجيع التطرف فى أفغانستان وإيران لإنهاك الاتحاد السوفيتى

المنطقة»، ثم بين المسيحيين والمسلمين «فى لبنان»، وأخيرا بين المسلمين والمسلمين بصورة مباشرة وواضحة فى حرب الخليج، وبصورة مستترة وأكثر دهاء فى جميع الدول الإسلامية من خلال تشجيع التطرف وبث الأفكار الغريبة عن الإسلام، بل عن أى عقل ومنطق.

وفى تقرير خطير نشرته فى عام ١٩٨٤ دورية معلوماتية محدودة التوزيع تصدر فى نيويورك (إنتيلجينس ريبورت) قرأت ما يثير الدهشة والذهول حتى أننى قررت إرساله إلى فضيلة الإمام الأكبر المغفور له الشيخ جاد الحق شيخ الأزهر فى ذلك الوقت، وقد جاء فى هذا التقرير أن الأمريكيين والسوفييت تنبهوا فى وقت واحد للطاقة الهائلة للأديان السماوية ، وما يمكن أن تخلقه هذه الطاقة من واقع جديد يستفيد منه هذا الطرف أو ذاك. وفى عهد الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر كان يوجه السياسة الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط كل من هنرى كيسنجر وزبيجنيو

بريجنسكى « مستشار الرئيس لشئون الأمن القومى » الذى تبنى استراتيجية تقوم على تشجيع التطرف الإسلامى وبصفة خاصة على حدود الاتحاد السوفيتى « إيران وأفغانستان »، الأمر الذى من شأنه إشاعة عدم الاستقرار فى الأجزاء الجنوبية من الاتحاد السوفيتى.

والمعروف أن أعدادا هائلة من المسلمين تعيش فى تلك الأجزاء من الاتحاد السوفيتى، الذى يضم أكبر رقعة من الأراضى فى العالم كله . ورأى بريجنسكى أن اتصال المسلمين من خارج الاتحاد السوفيتى بالمسلمين داخل الاتحاد السوفيتي سيعمل على شق الأراضى السوفيتية بسكين قاطع. وأن « الجهاد » أو الحرب المقدسة التى يشنها المسلمون فى النهاية ستعمل على إحداث قلاقل هائلة للسوفييت داخل أراضيهم لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية.

فى الوقت نفسه كان الاتحاد السوفيتى قد بدأ يستغل لصالحه خبراته التاريخية الطويلة مع المسلمين السوفييت، وقرر أن يرد على الأمريكيين بتوجيه الهجمات لاتفاقية « كامب ديفيد » للسلام على أساس أن الأمريكيين وحدهم شاركوا مصر وإسرائيل فى الوصول إلى الحل السلمى الذى كان يعد مستحيلا. ولتحقيق هذا الهدف بدأ السوفييت يستنفرون مشاعر المسلمين فى العالم كله مستغلين فى ذلك عواطف المسلمين تجاه الأماكن المقدسة وعلى رأسها المسجد الأقصى فى مدينة « القدس »!

وبدأ السوفييت يرسلون مسلميهم إلى المؤتمرات الإسلامية وفى بعثات الحج التى كان على رأسها فى عام ١٩٨١ الشاب التتارى السوفيتى المسلم تالجات « ربما طلعت » تاج الدين الذى اجتمع هناك مع ممثلى المؤتمر الإسلامى واستقبله الملك خالد ملك السعودية فى ذلك الوقت!

يقول التقرير أن صانعى السياسة السوفيتية يؤكدون دائما خلال مناقشتهم أنهم يعتبرون وسائل استغلال الدين والثقافة من أقوى الأسلحة الموجودة فى ترسانتهم . ولما كان لديهم ٤٤ مليون مسلم داخل أراضيهم « معظمهم من



كامب ديفيد تمت بدون مساهمة من الاتحاد السوفيتى وبدون إيران فكاناً أن قاما بتشجيع الإرهاب والتطرف لعرقلة العملية السلمية!

الشيعة»، فإنهم يعرفون تماما حقيقة مشاعر المسلمين فى مختلف بقاع الدنيا.

وهكذا نجد أن اللعبة التى نعانى منها حاليا قد بدأت برغبة الأمريكيين في خلق «قوس من الفوضى» وعدم الاستقرار على حدود الاتحاد السوفيتى مستغلين فى ذلك مشاعر المسلمين، وانتهت بأن حول السوفييت هذا القوس إلى «قوس من الفرص» التى استغلوها لصالحهم. وشاعت الفوضى فى جميع دول المنطقة، ولعل هذا يكون السبب وراء المناورة الخطيرة التى قام بها الشيوعيون فى بعض البلدان العربية ، ومنها مصر، عندما تحولوا من النقيض إلى النقيض الآخر، من الشيوعية إلى الإسلام المتطرف، وربما كان هذا أيضا هو بداية الطريق الذى ترسخ بعد ذلك عند انهيار الشيوعية والاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٨٩، ولم يصبح أمام الشيوعيين الملتحين إلا طريق واحد هو مواصلة «التأسلم» و«الاستشياخ» والتطرف سعيا إلى السلطة من خلال بوابة جديدة بدون أى خجل أو استحياء!

وإذا كان الأمريكيون قد خسروا الجولة فى هذه المباراة الاستراتيجية التى

كسبها السوفييت، فهم قد كسبوا المعركة فى أفغانستان، عندما حولوها إلى فيتنام بالنسبة للسوفييت، وذلك عن طريق إثارة المشاعر الإسلامية واستغلال طاقة هذا الدين العظيم فى محاربة القوة الثانية فى العالم!

الأعجب من ذلك أن معظم الدول العربية والإسلامية ساعدت الأمريكيين فى هذا الاتجاه وفى هذه المعركة. ولم يكن أحد منا يعلم أن أفغانستان هذه ستتحول إلى مدرسة نموذجية للإرهاب وأن خريجيها سيعودون إلى المنطقة يعيثون فى دولها خرابا ودمارا لسنوات طويلة تمثل حقبة من أحلك الحقبات في تاريخنا.

كذلك كانت الأقدار أكثر تهكما واستهزاء بالأمريكيين وبأفكارهم ومخططاتهم ونظرياتهم الاستراتيجية، فقد كانوا فى البداية ـ كما قرأنا معا ـ يخططون لاتصال المسلمين على جانبى الحدود السوفيتية الجنوبية فى آسيا « مع إيران وأفغانستان » . وتصوروا أن هذا الاتصال سيكون بمثابة سكين باتر يعمل على تقطيع أوصال القوة الثانية فى العالم. ولكن هذا الاتصال لم ينجح. ومع ذلك انهار الاتحاد السوفيتى من الداخل فى عام ١٩٨٩ كما نعرف جميعا، ومن سخرية الأقدار أن تم الاتصال الإسلامى بين الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى السابق وبين الدول الإسلامية القريبة على الحدود وبشكل خاص إيران قد حدث كما خطط الأمريكيون وأرادوا، لكن المضحك أن هذا الاتصال توجه أول ما توجه بالعداء نحو الولايات المتحدة الأمريكية!

ثم تردد بعد ذلك عن تعاون بين هذه الجمهوريات وإيران فى مجال الأسلحة النووية، الأمر الذى يتعارض تماما مع الأهداف والمخططات والنظريات الاستراتيجية الأمريكية!

وهكذا أصاب اللوث المصحوب باللعنات كل شيء، وصار الجميع يعانون منه، بمن فيهم الأمريكيون، ومع ذلك فلايزال هناك فى واشنطن من يتصور أنه مفكر استراتيجى لم ينجب العالم مثله !

النازيون والإنجليز والأمريكيون والسوفييت:

كلهم بلا استثناء يعبثون بين صفوف المسلمين!

تحدثنا فيما سبق عن الفكرة الأمريكية التى تبناها هنرى كيسنجر وزبيجينيو بريجنسكى لتغذية التيار الإسلامى فى منطقة الشرق الأوسط حتى يقف سدا منيعا أمام تغلغل الشيوعية إلى هذه المنطقة التى تتصارع عليها الدولتان العظميان.

ثم تحدثنا عن فطنة السوفييت لهذه الخطة والكشف عن التحالف بين السوفييت وعملاء النازية وعملاء المخابرات البريطانية التى كان لها باع طويل فى منطقة احتلتها لأكثر من ٢٠٠ عام، تعلمت خلالها كيف تعبث بعقول الجماهير، وكيف تستغل المعتقدات والمشاعر الدينية لتحقيق أهدافها فى بقاء غير مشروع.

إن الأمة الإسلامية التى استطاعت أن تهزم امبراطوريتى الفرس والرومان، لم تحقق ذلك إلا بسبب الدفعة القوية التى نبعت من فكر عظيم شامل هو الفكر الإسلامى، كما قدمه نبى أمى خرج من الجزيرة العربية، وبعد سنوات كانت جيوشه تدق أبواب أوروبا وآسيا فى الوقت الذى كانت فيه أمته يعلو شأنها يوما بعد يوم بكل أنواع المعرفة والثقافة والحضارة، فى طريق سوى وبتدرج طبيعى.

وفجأة - كما يقول لنا التاريخ - توقف كل شيء، وبدأ التدهور الهائل!

فما هذا الذى حدث؟

إن الإجابة عن هذا السؤال نجدها - بعد التأنى - بين سطور هذه الدراسة التى نشرت أخيرا فى الولايات المتحدة الأمريكية والتى أرسلتها فى حينه إلى المرحوم الشيخ جاد الحق شيخ الأزهر فى ذلك الوقت، وفى الوقت ذاته نشرت موجزا عنها فى صحيفة «الأهرام» التى كنت أعمل بها.

تقول الدراسة إن طبيعة الدين الإسلامى تميل إلى خلق وتكوين أمة إسلامية،

وكانت هذه الطبيعة بالذات هى السمة الأساسية للنهضة العربية التى وصلت إلى الذروة فى عصر العباسيين خلال القرن التاسع الميلادى.

وبعد ذلك بدأت الاجتهادات ومايتبعها من فلسفة استمدت جذورها من *المعتقدات التى كان يعتنقها العرب قبل الإسلام فى فترة الجاهلية*. وخرجت إلى الوجود أفكار وكتابات تنافى العقل والمنطق. ومنذ هذا التاريخ بدأ الليل الداكن، *وبدأ الانهيار واليأس يحتوى العالم العربى، ليستمر وتتوطد أركانه لأكثر من ألف* عام حتى يومنا هذا.

من هنا نتبين أن نهضة الإسلام جاءت من داخل المسلمين، وأن تدهور المسلمين جاء أيضا من داخلهم!

تضيف الدراسة أنه فى النهاية كان هذا الجنوح فى الفكر وعدم العقلانية ومنافاة المنطق - هى القاعدة الفلسفية التى عملت على توحيد عملاء النازية والمكتب العربى البريطانى وعملاء السوفييت الذين يستغلون الدين الإسلامى برئاسة مسلم شيعى سوفيتى يدعى جيدار عليهف.

ومن هنا تسلل أعداء الأمة الإسلامية وبدأوا يستغلون هذه الثغرة التى ابتدعها المسلمون أنفسهم، لضرب الدين الإسلامى وفكرة الأمة الإسلامية. وبدأوا يستغلونها أيضا فى تحقيق أهدافهم الاستراتيجية. وأبرز مثال على ذلك هو ضرب المصالح الأمريكية فى المنطقة، وهو ما يتماشى مع أهداف السوفييت، والتى عبر عنها جيدا آية الله خونيها - أحد كبار معاونى آية الله خومينى - خلال حديث صحفى مع جريدة «النهار» اللبنانية عندما صرح قائلا: إن أهداف الثورة الإيرانية هى القضاء على الثقافة الأمريكية فى المنطقة! بمعنى آخر القضاء على الحضارة الغربية بلا أى سبب، اللهم إلا تعصبا غير عاقل ترعرع لأكثر من ألف عام عندما بدأت الأفكار والفلسفات التى تتنافى مع الدين الإسلامى ومع الفكر والمنطق خلال القرن التاسع كما ذكرنا من قبل. وهى نفس الأفكار التى عملت على بعثها من جديد القوى الجديدة فى العالم لاستغلالها فى الصراع الدائر بينهم والذى لم يتوقف إلى يومنا هذا. وهكذا كان مسلمو إيران يضربون المصالح



صورة لاتحتاج إلى تعليق لأنها تمثل البشاعة والوحشية التى دارت فوق أرض الجزائر.. باسم «الإسلام والمسلمين»!

الأمريكية لصالح السوفييت، بينما مسلمو أفغانستان يضربون مصالح السوفييت لصالح الأمريكيين، مصالح هذا ومصالح ذاك، وفى كلتا الحالتين كان المسلمون هم وقود الصراع وضحاياه بالدرجة الأولى!

ويكشف التقرير الذى تضمنته النشرة المعلوماتية الأمريكية «إنتيلجنس ريبورت» عن حقيقة غابت عنا تماما، فالمعروف أن فرق الاغتيالات مثل جماعة «الحشاشين» والتى اشتقت منها كلمة ASSASSIN بالإنجليزية ومعناها «القتلة»، كانت قد ظهرت خلال فترة تدهور الامبراطورية الإسلامية والنزاعات الدموية التى شاعت فى أرجاء هذه الامبراطورية.

وهنا يقول التقرير إن برامج التدريب والتكوين العقائدى لهذه الجماعات اتخذت كنموذج فى الغرب لتشكيل تنظيمات متطرفة تعتمد على إرهاب الناس وإجبارهم على اتجاهات معينة. وفى هذا الإطار خرجت علينا جماعة الجيزويت التى أسسها «أجناتيوس لويولا» الذى احتذى فى تكوين جماعته ببرامج التدريب والتكوين العقائدى للجماعات والفرق المتطرفة التى ظهرت فى نهاية

حقبة الامبراطورية الإسلامية.

وأغرب من ذلك أن الجنرال هنريتش هيجلر، القائد النازى الذى عمل مع هتلر، احتذى أيضا بهذا النموذج العربى أثناء إنشاء فرق «العاصفة» (S.S) الشهيرة؛ والتى كان لها باع طويل فى إلقاء الرعب فى نفوس دول الحلفاء.

والذى حدث فى الآونة الأخيرة عندما أرادت هذه القوى أن تخترق الإسلام وتعمل على تخريبه من الداخل، فإنها عمدت إلى بعث هذه الأفكار والتنظيمات الإرهابية من جديد. ومن ثم؛ خرجت علينا التنظيمات المتطرفة التى ألقت الرعب فى نفوس الجزائريين لسنوات طويلة. وكررت نفس المحاولة فى مصر لسنوات محدودة شاهدنا خلالها موجة عاتية وعابثة من الاغتيالات والانفجارات التى لم تشهدها مصر من قبل، والتى تتعارض مع طبيعة المصريين. وأهم من ذلك أنها تنافى الروح الحقيقية للدين الإسلامى الذى يتصف، أول مايتصف بالسماحة المتناهية ونبذ الإرهاب وسفك الدماء!

هنا يقول الكاتب «لندون لاروش» إن أى فرع من فروع الحضارة الغربية يقوم بتطوير واستخدام تلك الفلسفة الإسلامية التى نشأت فى القرن التاسع وأدت إلى انهيار الامبراطورية الإسلامية من الداخل كورقة يلعب بها أو كعامل تأثير ضد الخصم، فإن هذا أشبه بالرجل الذى يذهب إلى فراشه فى ليلة قارسة البرودة ويجلب معه فى نفس الفراش مجموعة من الثعابين السامة اعتقادا منه أنها ستشيع الدفء فى جسده!وكأنه لايدرك أن مصيره لدغة سامة قد تودى بحياته.

لذلك - كما تقول الدراسة - فإن انتشار العملاء العقائديين المحليين الذين يعملون لحساب الدول الأجنبية هو عملية شفافة الغرض تهدف إلى تشجيع التيار المتطرف غير العقلانى، ومعاداة المنهج العلمى، ومعاداة التكنولوجيا الحديثة بين عالم إسلامى قوى يصل تعداده إلى أكثر من ألف مليون مسلم، وبغرض أن تصبح هذه الفلسفة المنحرفة مرة أخرى هى الأيديولوجية السائدة فى العالم الإسلامى، تماما كما حدث خلال الفترة التى بدأ فيها انهيار الأمة الإسلامية.

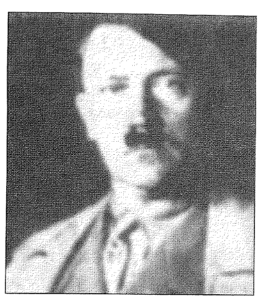

هنرى كيسنجر


زبيجينيو بريجنسكى

ويعتقد أعداء الأمة الإسلامية ـ طبقا لما جاء فى هذه الدراسة ـ أنه من خلال هذا الأسلوب؛ ستتوقف إلى الأبد أية محاولة لصعود نجم الدول الإسلامية وخروجها كأمة واحدة فى منطقة الشرق الأوسط. وتضيف الدراسة أنه من وجهة النظر السوفيتية فإن تغذية هذا التطرف والانحراف الدينى لها ميزات عدة للعمل كسلاح فعال لطرد الغرب من منطقة الشرق الأوسط، ولكن على المدى الطويل فإن التجارب قد أثبتت أن هؤلاء المتطرفين لايحالفون غير أنفسهم، أى أنهم يتمسكون بعدم العقلانية كهدف فى حد ذاته، وهذا هو الجوهر الأساسى المطلق لما يسمى باستراتيجية «الأوليغاركية» أو حكم الأقلية. ومن دواعى الأسى أن الأقلية فى هذه الحالة ليست النخبة الممتازة أو الصفوة، كما هو الحال فى الدول المتقدمة، ولكنها كانت عندنا تتمثل فى مجموعة من المتخلفين والمنحرفين، وكل الذين فشلوا فى تحقيق ذواتهم أو تحقيق أى نجاح فى المجتمع، فتحولوا إلى الدين يعبثون على أوتاره القوية والمؤثرة، وفى الوقت نفسه يعبثون بعقول البسطاء والسذج إلى درجة التخريب والدمار التام لكل ما هو حولنا!

وإن جاز لنا التعليق على هذه الدراسة الجادة ـ ولا أريد أن أجادل فى صحة كل ماجاء فيها، لأن النتيجة موجودة وملموسة بوضوح. وإن لم تكن تلك هى


ياسر عرفات


أدولف هتلر

الأسباب فعلينا البحث عن الأسباب الحقيقية إن جاز لنا ذلك - فإن المرء لا يستطيع إخفاء دهشته وازدرائه من هذه الغفلة التامة التى نعيش فيها منذ أكثر من ألف عام والتى جعلت منا أمة مختلفة تماما عن «خير أمة أخرجت للناس». وأما من يتشدقون بالجهاد والحرب المقدسة فلعلهم قد أدركوا وتبينوا الأعداء الحقيقيين الذين يعبثون بعقول وكيان ومستقبل أكثر من ألف مليون مسلم لأكثر من ألف عام!

نعود إلى التقرير الأمريكى «إنتيلجنس ريبورت» الذى يقول أنه لكى نفهم جيدا منطقة الشرق الأوسط فى العصر الحديث، فإنه ينبغى علينا أن نبدد كل الضباب الأكاديمى والأساطير، التى ترددها وسائل الإعلام عن تلك المنطقة ونتبين بوضوح حقيقتين بسيطتين:

١ - أن البريطانيين قاموا لأكثر من مائتى عام باحتلال وحكم معظم دول منطقة الشرق الأوسط «وكانت هناك أجزاء قليلة من المنطقة تحت الاستعمار الفرنسى».

٢ - أن شبكات المخابرات البريطانية استطاعت خلال هذه الفترة أن تتغلغل فى أعماق العالمين العربى والإسلامى وتثبت أقدامها بكل مهل وتؤدة وفى غفلة

تامة من سكان المنطقة.

ويجدر بنا هنا أن ننوه مرة أخرى إلى فترة الاستعمار البريطانى للهند وكيف لجأ البريطانيون بدهاء شديد إلى احتضان المسلمين الهنود حتى يثيروا عليهم سخط الهندوس والطوائف الدينية الأخرى بالهند، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى تقسيم شبه القارة الهندية وانفصال المسلمين فيما يعرف الآن بدولة باكستان. ونشوب الحرب مرتين بين الهند وباكستان. بل إن هذا الإسفين أدى فيما بعد إلى انفصال بنجلاديش التى تعيش فيها أغلبية من المسلمين. وبذلك وصلت سياسة الاستعمار البريطانى إلى أوجها فيما يتعلق بالمبدأ الشهير والعتيق «فرق تسد».

نعود إلى التقرير مرة أخرى لنسمع عن تفاصيل مذهلة بدأت بعد الحرب العالمية الثانية وهزيمة ألمانيا النازية، ويؤكد التقرير أن جوهر إمكانيات الاتحاد السوفيتى فى منطقة الشرق الأوسط هو تحويلهم ونشرهم لشبكات النازية القديمة التى كانت تعمل مع الزعيم النازى أدولف هتلر إبان حقبة الرايخ الثالث، لكى تزاول عملها ونشاطها فى منطقة الشرق الأوسط فيما بين الدول العربية. وذلك بعد أن فطنوا إلى عبقرية المخابرات النازية وقدرتها علي التغلغل داخل أى نظام، وكان من نتيجة هذا الأسلوب من جانب السوفييت، وأيضا من جانب معظم دول الحلفاء الذين استعانوا بطريقة أو بأخرى بالنازيين القدامى، أن نشأ حاليا ما يسمى بالنازية الدولية التى تلعب دورا كبيرا فى تفتيت العالمين العربى والإسلامى. ويقول التقرير أن هذه العناصر النازية نجحت وقتها في تفتيت حركة المقاومة الفلسطينية وانشقاق بعض أجنحتها، وأنها كانت أيضا مسئولة بشكل كبير عن تسخين الصراع العربى الإسرائيلى وتصعيد الموقف بشكل خطير كلما لاح السلام فى الأفق، لأن السلام معناه الاستقرار ومعناه توقف استنزاف موارد العالمين العربى والإسلامى. كما أنه يعنى بالنسبة للاتحاد السوفيتى السابق نجاح الإدارة الأمريكية التى انفردت بالمشاركة فى إتمام العملية السلمية بين العرب وإسرائيل. وكان هذا النجاح قد ترسخ بعد إتمام

اتفاق كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل. لذلك نالت كامب ديفيد من الهجوم ما لم تنله أية اتفاقات أخرى رغم أن الاتفاقيات التى أبرمت بعد ذلك كانت أقل بكثير مما حققته كامب ديفيد ، ناهيك عن أن تلك الاتفاقيات كانت تجرى فى السر وفى الخفاء، بينما كانت كامب ديفيد تدور فى وضح النهار وأمام عدسات وكاميرات العالم أجمع!

كذلك استطاعت هذه الشبكات «النازية السوفيتية» أن تلتحم مع الشبكات القديمة التي بثتها فى المنطقة أجهزة المخابرات البريطانية فى إطار ما يسمى «بالمكتب العربى» والذى كان يسيطر عليه لورد كارينجتون. وهكذا تحالف النازيون والسوفييت والإنجليز وعملاء المكتب العربى فيما هو أشبه بوحش كاسر يعمل على تخريب المنطقة العربية الإسلامية حتى لا تصل أبدا إلى المرتبة التي تستحقها والتى يمكن أن تجعل منها قوة عظمى فى العالم، وكان سندها الأول فى ذلك هو استغلال المشاعر الدينية الفياضة للمسلمين، واللعب على هذا الوتر ليس لصالح الإسلام بقدر ما هو لصالح أعداء الإسلام والمسلمين ولإجهاض أية طموحات إسلامية فى المستقبل .

وفيما يلى عدة نقاط مهمة ورئيسية يوضحها هذا التقرير لكشف طبيعة هذا التحالف الغريب بالمنطقة والموجه أساسا لتفتيت وإضعاف الدول العربية والإسلامية:

١ ـ أحد أعمدة النازية الدولية فى منطقة الشرق الأوسط رجل يدعى فرانسوا جينو وكان يعمل للمخابرات العسكرية الألمانية منذ عام ١٩٣٦، وكان أكبر معاونيه رجلا سويسريا تحول أخيرا إلى الدين الإسلامى (ويجدر بنا أن نحذر من أولئك الذين يعتنقون ديننا ونتحقق من دوافعهم الحقيقية) وقد سمى هذا الرجل نفسه « أحمد هوبر» وكان يسافر تكرارا إلى مدينة ليبزج بألمانيا الشرقية «سابقا» حيث كانت تتواجد مراكز التدريب الرئيسية للعمليات السرية التي تقوم بها الكتلة السوفيتية فى العالم العربى.

٢ ـ الجماعات المنشقة التي عاونها السوفييت لتدمير الزعيم الفلسطينى ياسر

عرفات وما تبقى من العناصر الفلسطينية المعتدلة، هذه الجماعات قام النازيون القدامى وعلى رأسهم رجل من رجال «الجستابو» يدعى أوتوا سكورزنى بتكوينها وتدريبها منذ الخمسينيات حتى أواخر الثمانينيات وكان يتم تمويلها بواسطة جماعة من النازيين المتمركزين فى سويسرا.

٣ ـ قام رجال «الجستابو» وعلى رأسهم الكولونيل سكورزنى بتنظيم أجهزة الأمن فى سوريا فى فترة مابعد الحرب العالمية، وعمل لويس برونر رجل المخابرات الألمانى القديم كمستشار أول لجهاز المخابرات السورى ولبعض الرؤساء والقادة السوريين « هكذا يقول التقرير».

٤ ـ فى نوفمبر ١٩٨٣ قام جورج حاوى بجولة لمدة ثلاثة أسابيع فى الولايات المتحدة، توجه بعدها مباشرة إلى موسكو حيث اجتمع مع بوريس بونوماريوف عضو المكتب السياسى السوفيتى، وكان برفقة جورج حاوى «عبد الله سعد» زعيم الحزب الشعبى السورى وابن مؤسس هذا الحزب الفاشستى. وكان من بين نتائج هذا التحالف الغريب بين المخابرات السوفيتية والنازية والبريطانية تنظيم المؤتمر العالمى بشأن فلسطين فى جنيف خلال شهر سبتمبر ١٩٨٣، وهو المؤتمر الذى بذل ياسر عرفات أقصى جهده لمنعه، وقد اشترك فيه وفد سوفيتى من ٢٢ عضوا برئاسة فلاديمير فينوجرادوف أكبر المتخصصين السوفييت فى شئون العالم الإسلامى، وكان الوفد السوفيتى على وئام تام مع باقى أعضاء المؤتمر مثل سالم عزام رئيس المجلس الإسلامى فى أوروبا والذي يباشر نشاطه من لندن كواجهة للمكتب العربى الذى أنشأه الاحتلال البريطانى بالمنطقة خلال حقبتهم الاستعمارية.

مؤامرات عديدة ومخططات غريبة تدبر ضد العالمين العربى والإسلامى من أجل اختراق هذا الحاجز المنيع للدين الإسلامى. وقد رأينا بعد ذلك جماعات دينية غريبة تعتنق آراء أكثر غرابة إن تحققت فمعناها العودة إلى الوراء والماضي السحيق. ولا عجب أيضا فى أن ترى كثيرا من الشيوعيين يرتدون قميص الإسلام ويبثون بين المسلمين آراء ونظريات أبعد ما تكون عن الإسلام والدين، وكل ذلك

ما هو إلا حلقة فى الصراع العالمى بين الدولتين العظميين لإضعاف وتفتيت العالم الإسلامى الهائل بحيث لا تقوم له قائمة أبدا.

فهل نفيق؟

أعتقد أن الطريق الوحيد المتاح أمامنا هو أن نعرف ونحذر ونعى جيدا ما يدور حولنا وأن نكتشف أعماقه وجذوره ودوافعه الحقيقية، ثم نتعامل بعد ذلك مع ديننا كما نتعامل فى دنيانا عندما نذهب للطبيب وحده للعلاج أو للمحامى للشئون القانونية والمهندس للبناء.. إلخ، وفى شئون الدين ينبغى أول ما ينبغى ألا نستمع لأى صوت غير الأزهر والعلماء المتخصصين والمؤهلين وأن نبتعد تماما عن السياسيين الذين اقتحموا مجال الدين تحقيقا لأغراض دنيوية رخيصة لا يملكون الشجاعة للإعلان عنها جهرا وصراحة.

علينا بذلك كبداية، وإلا فقدنا أقوى وأنبل ما يملأ وجداننا، وأقوى ما استطعنا أن نقف به فى وجه الاستعمار، وفى وجه الشيوعية، وفى وجه كل القوى العالمية التي حاولت منذ فجر التاريخ أن تبتلعنا بعد أن تمحو هويتنا الأساسية، والركن الركين فى شخصيتنا، وجوهر كياننا الإنسانى.

السلطة
«الروحية السياسية»
ومسلمون
فى جوف الثعبان!

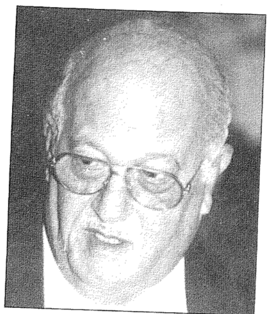
خلال سعى الإنسان للتقدم، قامت الحضارات القديمة، وكان المصريون القدماء ـ مثلهم مثل الإغريق القدامى ـ يؤمنون بوجود الآلهة. وكانت أفكارهم بالطبع غير دقيقة وغير متكاملة، لكن الاتجاه الفكرى العام لديهم كان يؤكد أن الإنسان لا يقف وحيدا فى هذا الكون الفسيح، بل هناك قوة خالقة هائلة تقف وراءه. وكانت تصوراتهم عن القوة الإلهية وعلاقتها بالإنسان تصورات اجتهاد لم تقترب أبداً من الحقيقة.

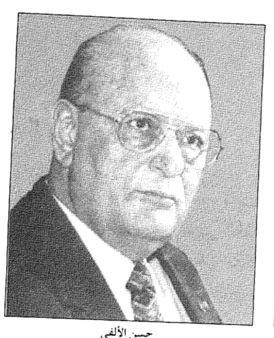
ولعل فرعون مصر «أخناتون» كان أعمق من فكر وتصور فى هذا المجال الحيوى الذى شغل أذهان المفكرين والحضارات القديمة، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه بقاع أخرى من الأرض تعيش بلا فكر، وبلا حضارة، وبلا أية محاولة لفهم طبيعة الحياة والكون، وما وراء هذه الطبيعة. بمعنى آخر كانت فكرة «الإله» موجودة دائما فى أذهان المتقدمين والمتحضرين، أما أولئك الذين لم يستخدموا عقولهم منذ البداية، فقد اكتفوا بما تصل إليه حواسهم مثلهم فى ذلك مثل باقى الكائنات الأخرى التى تعج بها الكرة الأرضية!

من هنا كانت «الحيرة الروحية» لإنسان ما قبل الديانات السماوية، ومن هنا كانت المكانة العالية والسلطة الهائلة لمن يتوصل بفكره وإدراكاته إلى مفهوم روحى تستريح له عقول البشر، وبالتالى تستريح لصاحبه وترفع وتجل من شأنه، تماما كما كان شأن الكهنة فى مصر الفرعونية وشأن أقرانهم فى القبائل البدائية.

ولعلنا نكون هنا قد وصلنا إلى نقطة ينبغى معها أن نفهم «طبيعة السلطة» فهى مسألة أحاط بها سوء فهم كبير. وأحد الأسباب المباشرة لسوء الفهم هذا هو أن السلطة نوعان: سلطة سياسية، وسلطة روحية.

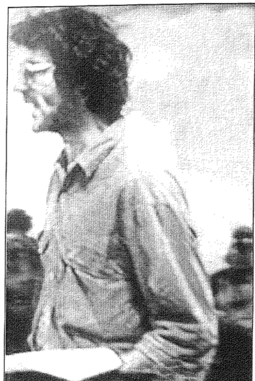
وفي الميثولوجيا الدينية ـ ولا نجد لها غير هذه التسمية ـ للإغريق

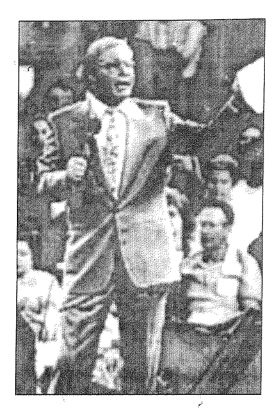

حسن أبوباشا


حسن الألفى

القدامى، فشل الفلاسفة الإغريق فى تحديد الخط الفاصل بين السلطة السياسية والسلطة الروحية. وفى آسيا عند خروج الفيلسوف بوذا إلى الحياة، قال العرافون لأبيه أن ابنه سيكبر ليصبح إما أقوى ملك شهدته الدنيا، أو سيصبح رجلا فقيرا معدما، لكنه سيكون أعظم زعيم روحانى عرفه العالم، إما هذا أو ذاك ، ولكن ليس الاثنين معا. وهنا لمس هؤلاء العرافون البسطاء الفارق الهائل الذى يفصل بين السلطة السياسية لملك أو حاكم، والسلطة الروحية لفيلسوف أو مفكر أو داعية!

والتعريف العلمى الحالى للسلطة السياسية هى أنها القدرة على إقناع الآخرين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بالإذعان إلى إرادة شخص ما، وهذه القدرة تكمن إما فى منصب مرموق أو فى ثروة طائلة يستطيع بها إنسان ما أن يحقق مايشاء، أما السلطة الروحية فهى تكمن أساسا فى الفرد ذاته وشخصيته الفريدة وثقافته الخاصة، وتتميز بأنها تعمل على توعية الناس وإنارة أذهانهم ليتمسكوا بمبادئ ومفاهيم تنير طريقهم، وتقدم لهم عونا كبيرا على هذا الطريق، فتستريح النفوس وترضى وتسمو، فتكون قد اقتربت من الحلم الإنسانى الأزلى: الرضاء الكامل والسعادة!


ديفيد كورش


جيم سواجارت

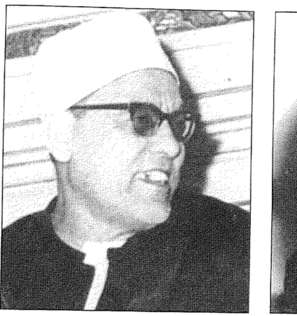
هكذا نرى أن السلطة السياسية تختلف تماما عن السلطة الروحية. وينبغى الفصل بشكل قاطع بين هذه وتلك، لأن الدمج بينهما يكون على حساب المجتمع ماديا وروحيا، ويؤدى إلى حالة اللانظام التى شاهدنا منها نموذجا صارخا فى إيران، وفى السودان وأعان الله الجزائر التي تسيل فيها الدماء يوميا بسبب الصراع بين أبناء الشعب الواحد الذى يدفع ثمنه الباهظ الشعب كله والوطن الأم؛ لا لشيء اللهم إلا هذا الخلط المدمر بين السلطة السياسية والسلطة الروحية!

وها هى إيران تحاول الخروج من هذا الخلط بين السلطتين بما يُسمى تيار الإصلاحيين، وتخوض صراعا داخليا شرسا. وفى السودان هناك محاولة ثانية للخروج من هذا المأزق، وكذلك الجزائر.

نعم إن الروحانيات تلعب دورا أساسيا في حياة الفرد، وحياة المجتمع، والزعيم الروحى لعب دورا بناء على مر التاريخ في تغيير أحوال البشر والمجتمعات الإنسانية.



د. رفعت المحجوب



الشيخ الذهبي

لكن على الجانب الآخر، كان هناك أدعياء كثيرون جلبوا الخراب على مجتمعاتهم، ثم على أنفسهم بسبب ما زرعوه من أفكار مدمرة.

وإذا كانت تلك الظاهرة واضحة بين غير المتعلمين، فإنها موجودة أيضا بين فئات عديدة من المتعلمين، ولكن يلاحظ أنها أكثر انتشارا بين الخريجين الذين اقتصر تعليمهم على المبادئ والنظريات العلمية الجافة، فيحصل الخريج على شهادته، بينما عقله مزدحم فقط بأشياء لا تفيده ولاتسعفه عندمايخلو لنفسه ويفكر فى الحياة والوجود الإنسانى. وهذا أمر لابد أن يتطرق إلى التفكير فيه أى إنسان مهما كانت درجة ذكائه أو تعليمه، لذلك تحرص أغلب الدول المتقدمة على تدريس ما يسمى بالإنسانيات أو «العلوم الإنسانية» من أدب وفلسفة وفنون .. إلخ ويتم تدريس تلك المواد فى كافة الكليات والمعاهد بما فى ذلك كليات ومعاهد الدراسات العلمية البحتة، حتى يعملوا على تحقيق التوازن الوجدانى لجميع الخريجين، ولأنهم يعلمون جيدا أن كافة المعارف الإنسانية، مثلها مثل الغذاء لا يمكن لإنسان أن يكون سليما صحيا إذا اعتمد على نوع واحد منه، ولكن الغذاء المتكامل - كما نعلم - هو الذى يشمل جميع العناصر والمعادن والفيتامينات!

وهكذا فإنه ليس من قبيل المصادفة أو الجهل والغباء أن يأتى دعاة الفكر المنحرف عندنا وفى دول أخرى بالمنطقة، ويحرصون على تحريم التليفزيون، والصحف والمسرح والسينما والأدب والموسيقى، لأنهم يعمدون أساسا إلى خلق المزيد من «الخواء الوجدانى» داخل نفوس ضحاياهم، حتى يتمكنوا منهم تماما ويحولوهم إلى دمى بشرية ينفذون بها ما يريدون.

وهكذا رأينا أن التطرف الذى جاء - كما قلنا - نتيجة إحباطات وإخفاق فى التكيف مع ظروف وأوضاع معينة، يصبح هو التربة والقاعدة العريضة التى يتم منها اختيار من يصلح إرهابيا، وبعد أن تتم عملية التجنيد باستخدام الأموال والسكن والإيواء وألقاب فضفاضة مثل «أمير الجماعة» أو «قائد جناح» .. إلخ، ثم يتم التدريب وغسيل المخ فى عملية تعليمية مدروسة ربما تكون أول عملية تعليمية يتلقاها الضحية الجديدة فى حياته كلها، وهنا فقط يتحول المتطرف إلى إرهابى.

ونلاحظ هنا أن الإرهاب بهذا الشكل يقتصر على دول العالم الثالث.

أما دول العالم المتقدم فإن الحلقة تتوقف عادة عند التطرف، وإذا ما تطورت إلى مرحلة العنف، فإن العنف عادة يكون سلبيا، أى بالانتحار الجماعى لأعضاء المجموعة المتطرفة مثلما حدث فى جونز تاون «غيانا» فى نوفمبر ١٩٧٨ لطائفة «هيكل الشعب» التى كان يتزعمها أمريكى أسود اسمه «جيم جونز» كان يدعى أنه يجسد السيد المسيح ولينين؛ وأنه ابن روحى للزعيم الصينى ماوتسى تونج! وفى ١٣ نوفمبر من ذلك العام قام ٩٢٣ شخصا من أعضاء الجماعة؛ وبأمر من زعيمهم بتناول شراب ممزوج بسم السيانيد، بينما أطلق بعضهم النار على البعض الآخر؛ فلقوا مصرعهم جميعا.

وفى عام ١٩٩٤ وقعت عملية انتحار جماعى أخرى فى قرية «شيرى» بسويسرا، وفى مرتفعات «مورين» بكندا راح ضحيتها ٥٣ شخصا من أتباع جماعة متطرفة تسمى نفسها «طائفة الهيكل الشمسى»، يتزعمها مجنون

آخر اسمه «جوزيف دى مامبرو». كان هذا كله فى إطار حوادث العنف السلبى ، أما إذا كان العنف إيجابيا فإن الدول المتقدمة والديمقراطيات العريقة تقابل هذا النمط من العنف بما هو أعنف منه بمراحل وبمنتهى الحسم والقوة. وفى هذا المجال فإننا لا ننسى ما حدث فى بلدة «واكو» بولاية تكساس الأمريكية فى أبريل عام ١٩٩٤ حيث قام مخبول يدعى «ديفيد كورش» يتزعم طائفة من المتطرفين باختطاف مجموعة من الأطفال مهددا بقتلهم فى مقر الطائفة. وبعد قيام الشرطة الأمريكية بحصار المقر لمدة ٥١ يوما، قامت القوات العسكرية بشن هجوم مسلح على هذا الموقع. وانتهت المأساة باشتعال المقر وتدميره تماما ومصرع ٨٥ من أعضاء الجماعة بمن فيهم زعيمهم ديفيد كورش.

وفى إطار زعامات التطرف والجماعات الدينية الجديدة التى أصبحت ظاهرة عالمية، تختلف درجات الهوس والشذوذ، ولكن ينتهى الأمر دائما بالكشف عن الحقيقة وهى في الغالب مفجعة. ولنأخذ على سبيل المثال شخصية القس الأمريكى «جيم سواجارت». هذا الرجل الذى يتمتع بشخصية ساحرة تستطيع أن تسلب عقول الجميع ـ تماما مثل راسبوتين من قبله وكثيرين من بعده ـ هذه الراسبوتينية الجديدة التف حولها الملايين من العالم المسيحى فى الولايات المتحدة وأوروبا وغيرهما. وكان الرجل مباشرا يعرف غايته ووسيلته، فطالب بإنشاء «كنيسة تليفزيونية» يبشر من خلالها بتعاليمه الجديدة، وربط بذلك بين الدين والإعلام المرئى، كمزيج شديد الفاعلية للوصول إلى الجماهير والتأثير عليهم. ثم فجأة تنكشف الحقيقة ويعرف الناس أنه دجال وزير نساء من الدرجة الأولى. وتصل الفجاجة إلى درجة أنه يعترف بذلك علانية أمام الجميع، وبسبب سحر شخصيته ينجح فى التأثير على الساذجين المحبطين، فأى قس هذا؟

وأى تبشير ذلك الذى يزوج له؟

وأى مغفلين هؤلاء الذين يستمعون إلى هذا الرجل؟

الإجابة هنا هى كلمة واحدة: «الكاريزما» أو سحر الشخصية الذى يمتلكه

البعض، ويستطيع من خلاله أن يسيطر على مجموعات هائلة من البشر، يقودهم إلى حيث يشاء، حتى لو كان فى حقيقته عاهرا فاجرا، لأن البسطاء والضعفاء لن يروا ذلك، بل إن الويل، كل الويل، لعاقل يقرر أن يخرج على هؤلاء المخدوعين ويذكر لهم الحقيقة المخزية، لأنهم إنهم سيفتكون به لا محالة!!

وللأسف فإننا فى مصر ابتلينا بهذا الطراز من الشخصيات التى تملك سحرا شيطانيا، وللمزيد من الأسف فإننا فتحنا لهم وسائل الإعلام الرسمية للدولة يمارسون من خلالها خداع الناس، وخاصة أجهزة الإعلام المرئية «التليفزيون» (تماما كما طالب القس الأمريكى جيم سواجارت «بكنيسة تليفزيونية») فساعدنا بذلك على بناء الأساطير الكاذبة حتى أصبحنا غير قادرين على المساس بها أو الاقتراب منها! وذلك فى الوقت الذى عمدت فيه دولة شقيقة هى تونس إلى الكشف منذ البداية عن الانحلال الخلقى لواحد من هؤلاء تحالف مع التيار الإسلامى بهدف الوثوب إلى السلطة السياسية من خلال السلطة الروحية، وعرضت بالصوت والصورة ممارساته الشاذة؛ فانقذت جماهيرها من هذه الغواية وأنقذت نفسها من الطريق الدامى للإرهاب حتى يومنا هذا!

نعم إنه عصر القلق والمخاوف والإحباط، ومائة ألف نعم أن الأديان والإيمان تشد أزر كل إنسان وتملأ وجدانه بضياء تحفزه على الحياة، وتحمل كل ما تأتى به الأقدار والأيام. ولكن التطرف هو انطواء مرضى، وهروب من ساحة العمل والكفاح. وفى الدين الإسلامى العظيم ـ الذى ابتلى ببعض معتنقيه ـ فإن العمل عبادة، وعلى حد علمى فإنه الدين الوحيد الذى قدس العمل بهذا الشكل، وبالتالى أعطى اهتماما كبيرا بشئون الدنيا ولم يطلب منا الانطواء والانعزال دون عمل نسهم به في خدمة الناس والحياة.

وفي الوقت الذى يظهر فيه أن هذا الهوس وهذا الإفك قد أصبح ظاهرة عالمية، فإن الأمانة تقتضى منا التأكيد على حقيقة جوهرية مفادها أن السعى إلى السلطة الروحية فى الدول المتقدمة من جانب هؤلاء المدعين الجدد هدفه بالدرجة الأولى التربح والشهرة والجاه والنساء.. إلخ. أما عندنا فى

العالم العربى فقد كان الهدف هو الوصول إلى السلطة السياسية عن طريق السلطة الروحية، أو الوصول إلى الدنيا عن طريق الدين، وهو ما يعتبر تناقضا صارخا والتواء رخيصا إلى حد غير مسبوق!

كذلك خرج علينا فريق من المدعين لم يكن هدفه سياسيا ولكن كان هدفه فى المقام الأول هو نفس هدف «جيم جونز» و«سواجارت» من حيث الشهرة والمال والنساء.. إلخ.

وهكذا أصبح لدينا فى مصر ـ وفى العالم العربى بشكل عام ـ ثلاث فرق من الدعاة : الدعاة الحقيقيون من رجال الأزهر والفقه الإسلامى، والدعاة النصابون الذين يسعون من خلال السلطة الروحية إلى كل أنواع الفجور، والدعاة السياسيون الذين يسعون إلى هدف سياسى فى المقام الأول دافعه الأساسى رغبة محمومة فى الوصول إلى الحكم، وهى رغبة لم تخب على مدى أكثر من خمسة وسبعين عاما يلجأون خلالها إلى «الكمون» و«التقية»، ثم يخرجون – فجأة – معلنين عن وجودهم في الوقت المناسب، هؤلاء هم الذين عبر عنهم جيدا المستشار سعيد العشماوى فى كتابه العميق «الإسلام السياسى» وعبروا هم عن أنفسهم جيدا عندما خرجوا من أوكارهم بتنظيماتهم المسلحة بمجرد أن لاحت الفرصة الذهبية مع اغتيال الزعيم الراحل أنور السادات، ويبدو أن هذا الرجل العظيم لم يشأ أن يرحل عن دنيانا إلا بعد أن يقدم للوطن خدمة جليلة، لأنه عندما استشهد ـ ومن المؤكد أن عملية الاغتيال جاءت غير متوقعة ولم يدبرها غير مرتكبيها وقبل ساعات من تنفيذ العملية وذلك طبقا لما جاء بأقوالهم ـ عندما حدث ذلك تصورت التنظيمات المتطرفة أن هذه هى الفرصة الذهبية التي ينتظرونها، فخرجوا مبكرا يعلنون عن وجودهم ويحاولون الاستيلاء على السلطة. ولو لم يقع هذا الحادث المأساوى لظلوا قابعين فى أوكارهم لسنوات طويلة يستكملون فى الظلام استعداداتهم وتنظيماتهم السرية التى كانت خافية على الجميع. على طريقة «كل شيء تمام يافندم»!

خرجوا مبكرا من الأوكار والجحور يبثون الرعب سعيا إلى الوثوب للسلطة من خلال إرهاب الجميع، وخرجوا يبتغون رموز الدولة ليغتالوها. ومن

السخرية أن أول هذه الرموز كان الشيخ الذهبى حتى يسكتوا هذه المنارة العلمية الدينية التي حفظت وصانت الإسلام على مر العصور، وربما نجد فى ذلك تفسيرا وإيضاحا للهجوم الذى يتعرض له شيخ الأزهر الحالى، فضيلة الشيخ طنطاوى، بين الحين والحين!. ومن بعد ذلك وهو العالم الأزهرى الجليل كان هدفهم وزير الداخلية رمز الأمن الداخلى فى مصر على مر العصور، ومن هنا كانت محاولتهم لاغتيال اللواء عبد الحليم موسى، ولكنهم قتلوا بدلا منه الدكتور رفعت المخجوب رئيس مجلس الشعب السابق، ثم محاولة اغتيال اللواء حسن أبوباشا الذى كان له باع طويل فى محاربة الإرهاب الدينى، ثم محاولة اغتيال اللواء حسن الألفى وزير الداخلية السابق بجانب اغتيال عدد كبير من قيادات الداخلية.. إلخ، لالشىء إلا لكى يقولوا أنهم اغتالوا رموز الأمن فى الدولة، وبالتالى ليس هناك أمن ولا أمان، وأنهم وحدهم الذين يسيطرون على البلاد!

ولما كان المصريون يقدسون الأمان فإنهم لابد أن ينصاعوا فى النهاية لمن يمتلك مفاتيح الاستقرار والأمن، بصرف النظر عن نواياه واتجاهاته والعبث الذى سيضفيه على مستقبل البلاد، هكذا تصوروا!

وعندما فشل الإرهاب المحلى المصرى فى اغتيال بعض رموز الوطن، تدخل الإرهاب «الإقليمى» الذى ينتشر فى منطقة الشرق الأوسط محاولا اغتيال رمز رموز مصر والمنطقة بأسرها: الرئيس حسنى مبارك، وشاءت الأقدار ويقظة الرجال أن تفشل هذه المحاولة الآثمة فى أديس أبابا، مما كان له أثر بالغ على مخطط إرهابى أجوف يعمل أساسا على تخويف الكتلة العامة للجماهير من خلال اغتيال رموز الدولة لعله - مثل المقامر اليائس الذى لا يملك شيئا - يفوز ويربح فى النهاية ما هو ليس من حقه، وما هو غير مشروع منذ البداية!

السؤال الآن هو : من أين جاء هذا العنف ؟ وهذه التنظيمات أو الميليشيات المسلحة التى لم تعرفها الساحة السياسية من قبل؟

والإجابة المنطقية هى أن هذه التنظيمات انبثقت عن الفكر المنحرف

الذى ولد فى العشرينيات على أيدى الاستعمار البريطانى.

ويأتى بعد ذلك سؤال لا يقل خطورة هو: كيف أمكن تحويل المصريين، الذين يميلون إلى السماحة ونبذ العنف بشتى أنواعه، إلى قتلة إرهابيين لا يعرفون شفقة أو رحمة؟ وإلى مخربين يدمرون اقتصاد وطن اشتهر بنوه على مر التاريخ بحبهم وولائهم له الذى يصل إلى حد التقديس؟

هذا ما سوف نتعرض له فى الصفحات القادمة.

مسلمون فى جوف الثعبان !

وقف الداعية المدعى الذى لم يدرس شيئا فى الفقه أو الدين ليروى قصة لمريديه ظن أنها تضم حكمة سماوية عميقة، ولكن لأنه لا يعرف شيئا عن الإسلام وطبيعته، كان بقصته تلك يفضح نفسه ، فى ذات الوقت الذى يكشف فيه التكنيك الأساسى الذى يلجأ إليه أمثاله فى حشد البسطاء والعبث بمقدراتهم. قال الرجل: إن فتاة كانت تريد أن تشترى «بدلة جينز»، واتفقت مع صديقة لها على أن تصحبها، ولكن عندما تأخرتا قليلا اعتذرت صديقتها عن الذهاب، لأن موعد الدرس الدينى ـ معه ـ قد حان، وأنها لا تستطيع أن تفوت درسا واحدا «لفضيلته»، وبعد نقاش اتفقت الصديقتان على أن تذهبا معا لحضور الدرس الدينى، وبعد ذلك تتجهان لشراء ما كانتا تنويان شراءه.

وخلال الدرس الذى تحضره الفتاة لأول مرة، وقف فضيلته يحرم الملابس العصرية والموسيقى والغناء..و.. وكل شيء نراه حولنا، وهنا أصيبت الفتاة باضطراب شديد، وطلبت من الحاضرات أن يغطينها بعباءة، لأن ما ترتديه حرام فى حرام حسب كلام الداعية المدعى، وكان أن أسرعت الحاضرات المتحمسات بتلبية طلب العضوة الجديدة التى خرجت بعد ذلك مرتبكة ومضطربة، فكان أن صدمتها سيارة على قارعة الطريق ولقيت حتفها على الفور!

هنا اغتنم ذلك المدعى الدعى الفرصة، وراح مثل حيوان الصيد فى انقضاضه على عقول الضحايا الذين يجلسون أمامه ليزيدهم خوفا، وليزيد من سلطانه فى نفوسهم، فأخذ يعلن عليهم بصنعته الكلامية التى يجيد فنها أنها قد ماتت مؤمنة وتائبة، بل قد ماتت شهيدة، متناسيا أن للتوبة شروطا وآدابا لابد أن تظهر فى سلوك التائب خوفا من الله وخشية له، وليس خوفا أو رهبة من أحد سواه، خاصة إذا كان من سواه هو ذلك الدعى الذى يتحدث فى الدين دون أن يعلم منه ما يؤهله لذلك المجلس الذى فرض به نفسه على الناس. نعم قد تكون الفتاة مؤمنة وتائبة، لكنه بما أحدثه فيها من رعب وما سببه لها من اضطراب، أفقدها سلامة تلك التوبة وأبعدها عن أن تتوجه بها لخالقها سبحانه من فرط إحساسها بالضياع والذنب والغربة فى وسط جماعة راحت ترمقها بنظرات كأنها شواظ من نار، بسبب ما قاله تعريضا بها وبملابسها حتى فقدت ثقتها بنفسها، وتشككت فيما أوجده الله من حوائجها من فطرة الإيمان، وشعرت فى لحظة ـ وبسببه ـ بأنها لا شىء، بل إنها العدم بعينه، ووقعت فى اضطراب نفسى أدى بها إلى تلك النهاية المأساوية المؤلمة للجميع!

هكذا سمح الرجل لنفسه بأن يقحم نفسه فى شئون جادة لا يصح أن يتحدث فيها غير ذوى العلم والفقه الصحيح، كذلك يقول لنا العلم: إن الخوف والتخويف يؤديان إلى اضطراب العقل، وإن من كان عقله مضطربا لا يمكنه أن يفكر تفكيرا سليما.

وأعتقد أن هذا لا يحتاج مناقشة أو برهانا، لأننا جميعا بلا استثناء جربنا بطريقة أو بأخرى كيف نرتكب أخطاء جسيمة عندما نكون مرتبكين ومضطربين، وأنه لم يكن من الممكن أبدا أن نرتكب هذه الحماقات لو كنا فى كامل وعينا وعقلنا وسيطرتنا على أفعالنا!!

هنا نكون قد وصلنا إلى جوهر «التكتيك» الذى يلجأ إليه المدعون والإرهابيون للإيقاع بضحاياهم، التخويف وإلقاء الذعر فى النفوس؛ فتضطرب العقول وتتوقف عن التفكير السليم، ويصبح الضحية فريسة سهلة وطيعة فى

أيدى من تحكم فى مشاعره وحولها كلها إلى مخاوف وذعر من كل شىء.

وفى ذلك ينسى من لا يعرفون صحيح الدين الإسلامى - سواء كانوا أدعياء مدعين أو أتباعا سذجا - قاعدتين أساسيتين من القواعد الذهبية العديدة التى يتضمنها الإسلام، والتى كانت - ولاتزال - سببا وراء انتشاره فى جميع أركان الدنيا: القاعدة الأولى هى اليسر ورفع الحرج، وهى القاعدة التى تحظى بأدلة كثيرة من كتاب الله تعالى - وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - ومن ذلك قوله سبحانه: «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر»، وقوله: «وماجعل عليكم فى الدين من حرج» وبقول النبى صلى الله عليه وسلم: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»، وكان عليه الصلاة والسلام - وكما ورد فى كتب السنة الصحيحة - ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما.

والواقع أن تلك القاعدة ما هى إلا ترجمة أكيدة لرحمة الله بخلقه ومغفرته لهم، وبهذا وصف الحق سبحانه نفسه بالرحمن فى سبع وخمسين آية من كتابه الكريم، كما وصف نفسه بالرحيم فى خمس وتسعين آية، ووصف نفسه بالغفور فى إحدى وسبعين آية من هذا الكتاب الكريم، وتكرر لفظ المغفرة فى ثمان وعشرين آية كريمة، بل قال سبحانه: «قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا»..

وذلك كله يبرر مدى الرحمة والمغفرة من جانب الله - تعالى - وبالقطع فإن ما شرعه لعباده نابع من تلك الرحمة وقائم عليها، وما اليسر ورفع الحرج عن الناس، إلا تطبيق لتلك المعانى الكريمة، وتأكيد عملى لها.

لكن من الواضح أن هذه الحقيقة لا تناسب الأغراض التخريبية للإرهابيين التى ترمى بالدرجة الأولى إلى الحشد والتعبئة عن طريق التخويف، ولأغراض بعيدة كل البعد عن الدين. ولا ترمى - وفقا لما ظهر من أحوالهم - إلا إلى تحقيق المكاسب المادية الفانية، أو تحقيق سلطة أدبية أو سياسية يهيمنون بها على قلوب الناس وعقولهم حتى يستطيعوا تسخيرهم، دون وعى أو إرادة لتنفيذ المآرب الخبيثة التى يتطلعون إليها، والتى هى أبعد ما تكون عن هدى

الدين السمح ومقاصده السامية.

أما القاعدة الثانية: فإنها تتمثل فى تأكيد صدق إيمان العبد بربه على نحو يجعله لا يخاف إلا إياه، ولا يخشى أحدا سواه، فهو سبحانه أحق بالخشية وأولى بأن يخافه الناس، ولا يخافون غيره، فهو وحده الذى يملك الضرر والنفع، وبيده مقاليد الأمور كلها، ولا يوجد أحد من خلقه يقدر على ذلك أو يملك ذرة منه، فالكل عبيد إحسانه وفقراء إليه، وصدق الله العظيم حين قال «يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد»، ويقول النبى صلى الله عليه وسلم: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف».

ولا شك أن من شأن إعمال تلك القاعدة الذهبية الارتقاء بكيان المسلم على نحو يستنهض فيه كل مظاهر الاعتزاز بشخصيته، فلا يكون شخصا سلبيا منساقا يسهل اصطياده وتسخيره دون وعى فى أعمال التخريب، أو تجنيده وهو مغيب العقل فى تنظيمات غير شرعية تتوخى التخريب والتدمير بعيدا عن كافة المبادىء، وبالمخالفة لكافة القوانين والشرائع، وعلى رأسها بالقطع شريعة السماء. ولعل ذلك بعض ما يرشدنا إليه الحق سبحانه فى قوله تعالى: «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين»، كما يؤدى إعمالها إلى تأكيد الذات المؤمنة حتى تصبح عنصرا فاعلا فى المجتمع ويتعامل الإنسان فيه بالصدق والوضوح، وينأى به عن الكذب والنفاق، ولهذا فإننا لا نعجب حين نطالع صفحات التاريخ المشرق للدولة الإسلامية، ونرى أن تلك القاعدة الذهبية كانت – مع غيرها من قواعد الإسلام – سببا فى رقى الأمة الإسلامية ونهضتها، وتأكيد وجودها وفرض هيمنتها على كافة القوى العالمية.

فأين ما يقرره الإسلام للارتقاء بعزة المؤمن وتأكيد إيمانه بالله - على نحو يجعله لا يخاف إلا إياه - من تلك الحيل الصبيانية التى يفعلها هؤلاء الأدعياء الجهلة الذين يغزون عقول الناس وأفكارهم بخيالاتهم المريضة التى تدور حول



الغيبيات، وما يتصل بها من عذاب القبر والثعبان الأقرع ومسائل السمعيات التى اختص الله بعلم تفصيلاتها، ولم يطلع عليها أحدا إلا نبيه صلى الله عليه وسلم؟

ولم يكلفنا فى العلم بها بتلك التفصيلات، فإنها غير مطلوبة منا، ويكون الدخول فى تفصيلاتها من قبيل العلم الذى لا ينفع والجهل الذى لا يضر!

وقد اهتم هؤلاء الأدعياء بتلك التفصيلات لأنها تتفق مع التنطع الذى ألزموا أنفسهم به من أمور الدين، وذلك بهدف السيطرة على أتباعهم واعتلاء صهوة رءوسهم، حتى يكونوا أداة طيعة فى أيديهم يوجهونها بالإيماء أو التلويح تارة، وبالتصريح تارة أخرى، لتعربد فى المجتمع قتلا وتخريبا وحرقا وتدميرا.

إنهم كاذبون مخادعون، لأنهم لا يريدون من أتباعهم أن يخافوا الله، بل يخافوهم هم، وألا يحترموا أحكام الله، بل ينفذوا ما يأمرونهم به، وهذا من أعظم التحريف لمبادىء الدين، ومن أشد ألوان الضلال التى يمارسها هؤلاء الأدعياء الجدد، الباحثون عن المال والسلطان للاتجار بالدين تحت مسمى الدعوة. والدين ودعوته بريئان منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

فى هذا الإطار وفى ظل تلك المآرب الخبيثة تكون وسيلتهم للوصول إلى ما يريدون هى انتزاع الخوف من الله وإفزاع قلوب الناس منهم ووضع أنفسهم مكانه فى تلك القلوب بعد أن أفزعوها وخربوها، ولهذا تجئ صورة الثعبان

الأقرع لتكون من أكثر الصور تعبيرا عن هذا الموقف الشاذ، وكان تركيزهم كبيرا على هذا الموضوع بالذات لأنه يفى بالغرض الذى يرمون إليه، ألا وهو تخويف الإنسان تمهيدا لسلب إرادته والسيطرة عليه لتحريكه كما يشاءون، مع أن الله سبحانه وتعالى يكرر علينا فى كتابه العزيز: «ألا تخافوا ولا تحزنوا» لأن الخوف والحزن - كما اكتشف علماء النفس بعد ذلك بمئات السنين - هما ضد طبيعة الإنسان ويعملان على هدر الكيان الإنسانى وهدمه. لكن ذلك لايعنى مطلقا هؤلاء العابثين، لأن أغراضهم تختلف ومقاصدهم تتعارض تماما مع إسلام قوى وصحيح ينهض بالأمة بأكملها لتكون «خير أمة أخرجت للناس».

فى هذا الإطار، وهذا المضمون قد تكون أكثر الصور تعبيرا عن هذا الموقف الشاذ هى صورة الثعبان الذى يبتلع الحمائم فى جوفه البغيض. إو الثعبان - كما نعلم - لا يمكن أبدا أن يحلق طائرا فى الجو ليلتهم هذا الطائر الوديع الذى يمكنه أن يصل إلى عنان السماء بعيدا عن كل زواحف الأرض ومن بينها الثعبان، ولكن الذى يحدث هو أن الأفعى أو الثعبان يصدر فحيحا مخيفا يبث الذعر فى قلب الفريسة الحائرة، وبدلا من أن تحلق فى الجو بعيدا عن الموت والخطر وفقا للإمكانات الأساسية التى حباها بها الله تعالى، فإنها من شدة الخوف والذعر وما يتبعه من اضطراب وارتباك؛ تلقى نفسها بنفسها فى جوف الثعبان لتواجه المصير المظلم والفناء!

ويصل الاستغلال إلى أدنى وأبشع صوره عندما لجأت هذه الزعامات المهووسة إلى استغلال بعض مشكلات الوطن والمواطنين، فيقدمون لها حلولا شيطانية باسم الدين ، وعلى سبيل المثال كانت - ومازالت - هناك أزمة إسكان تجعل من الصعب على الشباب غير القادرين أن يتزوجوا ويقيموا بيتا خاصا بهم، فإذا أضفنا إلى ذلك حقيقة أننا مجتمع متدين ومحافظ لا يسمح باختلاط الجنسين بالصورة المسموح بها فى المجتمعات الخارجية، وإذا أضفنا أيضا فورة الشباب والطبيعة الإنسانية، فإن معنى ذلك أننا نواجه

مشكلة حقيقية عملوا هم بدورهم على تعقيدها بالفتاوى والأفعال المتناقضة، فيحرمون الاختلاط والأحاديث التليفونية؛ فى الوقت الذى يقومون فيه بتزويج أعضاء الجماعات بطريقة غير شرعية، ويبيحون لهم ممارسة الجنس معهم فى أى مكان! غير مبالين بمخالفة ذلك لكل الأديان والشرائع السماوية والآثار الاجتماعية المدمرة التى ستنجم حتما عن هذا الإجراء غير المشروع ، والذى يعود بنا إلى ما هو أسوأ من سنوات الجاهلية وعصور الظلام!

كذلك فإنه بالنسبة لمشكلة البطالة وعدم قدرة البعض على الحصول على المال أصدروا فتاواهم باستحلال أموال غير المسلمين فى نظرهم، حتى إن كان بعضهم من المسلمين حقيقة. وركزوا هجماتهم المسلحة على محال تجار الذهب للحصول على ما يريدون من مال. هكذا بمنتهى البساطة متجاهلين وصية الإسلام بعدم تكفير المسلمين واستحلال أموالهم، ووصيته بأهل الكتاب والبر بهم وبأتباع الديانات السماوية الأخرى، ومرتدين بالمجتمع إلى عصر الغابة حيث لا شرع ولا قوانين ولا قيم.

أما إذا كان هناك من تصبو نفسه إلى القيادة والزعامة فإنهم بمنتهى البساطة يضفون عليه هذه الصفة بمنحه لقب «أمير جماعة» أو «قائد جناح عسكرى»، أو أى شىء من هذا القبيل. وإذا كان هناك من يريد أموالا أكثر فعليه أن يشارك فى اغتيال فلان أو علان؛ أو أن يقوم بنسف وتدمير هذه المنشأة أو تلك، ومن أجل ذلك كان التمويل يأتى من الخارج وبسخاء، والذى لا يعلمه إلى يومنا هذا من قاموا بتنفيذ هذه العمليات الإرهابية ضد الوطن ورموزه، أن ما حصلوا عليه من أموال مقابل هذه العمليات الإجرامية لا يعادل ٥٪ مما قدمته الجهات والعقول المدبرة فى الخارج، وأن الـ ٩٥٪ الباقية كانت تتسرب عند تسليمها من «أمير» إلى «أمير» ومن «قائد جناح» إلى «قائد جناح»، فالكل لصوص ، وكل شىء مستباح مادام الجميع على هذه الدرجة من النفاق والتدنى بحيث يتسترون، ويسترون أعمالهم،

وراء أعلى وأعظم القيم فى تاريخ الإنسانية جمعاء!

لقد كان مخططا ضخما أرادوا به أن يقيموا دولة غير الدولة التى نعرفها وننتمى إليها. وفى هذا المجال كانت وزارة الاقتصاد والمالية والخزانة بالنسبة لهم هى شركات توظيف الأموال التى كانت ترمى إلى السيطرة على اقتصاد مصر. وكانت لهم أيضا وزارة للإعلام ممثلة فى تلك الكاسيتات التى أغرقوا بها الأسواق والعقول؛ بجانب الكتب الصفراء التى تنقل أفكارهم إلى جانب التسلل إلى وسائل الإعلام الحكومية ودور الصحف الكبرى يبثون من خلالها أفكارهم المنحرفة، ومازال البعض منهم ينشط إلى يومنا هذا متخفيا فى رداء الاعتدال والاتزان ومتسترا بصحيح الدين منتظرا الفرصة المواتية ليعود إلى عزف الأسطوانة القديمة المشروخة! وفى الوقت ذاته كان هؤلاء يمثلون قوام «الأزهر» الخاص بهم ولا عجب أنهم كانوا جميعا على خلاف - واشتباك - مستمر مع علماء الأزهر الحقيقيين. وعلينا هنا أن نتذكر أنهم بدأوا هوجتهم باختطاف فضيلة الشيخ الذهبى وزير الأوقاف الأسبق وقاموا بعد ذلك بقتله، لا لشىء إلا ليبثوا الذعر والخوف فى نفوس علمائنا الأجلاء الذين استطاعوا رغم المحن والصعوبات أن يحافظوا على صحيح الدين الإسلامى وعلى صلابة الأمة عبر قرون طويلة من الزمان!

وفى مجال التعليم اخترقوا مهنة التدريس من خلال كلية التربية يبثون أفكارهم فى عقول المدرسين ليقوموا بدورهم ببثها فى عقول التلاميذ. وفى مجال المعلومات لجأوا إلى أحدث الوسائل العلمية والحاسبات الإلكترونية فى إطار شركة «سلسبيل» التى كشفت عنها السلطات فى الوقت المناسب. وكانت تضم أرشيفا معلوماتيا هائلا. وحتى بالنسبة للوزارات الأمنية كانت لهم تنظيمات موازية تلقت تدريبات عملية خلال حرب أفغانستان وبمساعدة الأمريكيين كما قلنا من قبل. ولكن - وكما لو كانت قد نزلت بهم لعنة من السماء - فإن كل ما مسوه واقتربوا منه تحول إلى شؤم ولعنات، فلم يستطيعوا امتلاك وسائل الدعوة الحكيمة الفعالة لمقاومة المكيفات والمخدرات كما

أعلنوا، فكان أن انتشر إدمان المخدرات، بين شبابنا بصورة لم نعرفها من قبل، وبدأنا نسمع لأول مرة عن «البانجو» و«الهيروين» اللذين لم يعرفا الطريق إلينا فى يوم من الأيام. وحاربوا لمنع الاختلاط البرئ بين الذكور والإناث فكان أن ظهرت فى المجتمع المصرى جرائم الاغتصاب بصورة وبائية لم نشهدها على مر تاريخ طويل، وحاربوا البنوك الوطنية ونظم الاستثمار المعمول بها مبتدعين توظيف الأموال و«كشوف البركة» فتحولت إلى «كشوف لعنة وفساد». وخسر المواطنون البسطاء «تحويشة العمر» وجهد سنوات طويلة قضوها فى غربة قاسية.

باختصار شديد صورت لهم عقولهم المريضة أنهم فى سبيل إحياء المجد العربى والإسلامى؛ بالصورة التى يتخيلونها، فكان أن أرهقوا الأمة العربية بأكملها، وألحقوا بالأمة الإسلامية وصمة الإرهاب والعداء والتخلف.

كانت أحلامهم - تماما مثل أحلام المجانين - وردية وذهبية بالنسبة لهم، ولكنها كابوس مرعب بالنسبة لنا وللجميع.

خطوط «مبارك»
الحمراء
وحتمية المواجهة

كانت عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحا، عندما انطلق وابل من رصاص الذخيرة الحية على كورنيش النيل، وبالتحديد أمام فندق سميراميس، ليتحول الهدوء إلى فوضى ودماء بريئة تسيل على قارعة الطريق.

كان ذلك عندما قام إرهابيان فى العقد الثالث من عمريهما بإطلاق سيل من الرصاص على السيارة المرسيدس التى تحمل رقم «٧٢١٢»، والتى كانت تقل الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب فى ذلك الوقت.

لقد قام الجناة بنصب كمين على طريق الكورنيش، وتمكنوا أولا من اصطياد سيارة الحراسة التى تحمل أرقام «١٦٧٥٣٢»، وذلك بإطلاق الرصاص على الإطارات، ثم قتلوا سائق السيارة ويدعى كمال عبد المطلب، ليجهزوا بعد ذلك على الموجودين داخل السيارة المرسيدس، حيث كان يرافق الدكتور المحجوب، المقدم عمرو الشربينى الضابط بالإدارة العامة لمجلس الشعب، وأيضا عبد العال على رمضان أحد موظفى المجلس.

ولم تتوقف الصورة الدموية القاتمة عند هذا الحد، فلقد قام الجناة باستقلال دراجتين ناريتين وقاموا بالسير فى الاتجاه المعاكس، بينما لم يتمكن أحد هؤلاء الإرهابيين من ركوب أى من الدراجتين، وفر هاربا وهو يحمل بندقيته، ثم أكره سائق إحدى سيارات الأجرة على التوقف والركوب معه، ثم النزول عند إشارة المرور القريبة من فندق رمسيس هيلتون.

فى تلك اللحظات تصادف وجود ضابطين بالقرب من هذه الإشارة، أحدهما العميد عادل سليم الذى حاول إيقاف هذا الإرهابى بطريقة تقليدية. وهى الإمساك به من ملابسه من الخلف، مثلما يحدث مع أى نشال أو مجرم عادى، وكانت النتيجة، هى استدارة هذا الإرهابى وإطلاقه النار من بندقيته الآلية، ليترك العميد عادل قتيلا وسط بركة من الدماء، بينما فر الضابط الآخر وسط

ذهول المواطنين الذين كانوا متواجدين لحظة وقوع هذه الحادثة البشعة.

كان هذا فى شهر أكتوبر ١٩٩٠.

الجانب الأكثر إظلاما لهذه الصورة، هو حصول جميع المتهمين على البراءة من تهمة الاغتيال، وإن كانت قد صدرت عليهم بعض الأحكام المتعلقة بحيازة أسلحة ومتفجرات، والتزوير فى أوراق رسمية، بعد محاكمة استمرت ثلاث سنوات متواصلة، ومن خلال مائة جلسة بالتمام والكمال والاستماع إلى شهود بلغ عددهم أيضا مائة شاهد؟!

وقد جاء فى حيثيات الحكم.. «هذه هى الحقائق التى استخلصتها المحكمة من مطالعة أوراق القضية وتمحيص أدلتها التى لم تستطع أن تصل بيقينها إلى الجزم للقضاء بالإدانة بعد أن دخل وجدانها الريب والشكوك على هذا النحو المتقدم. وأخذا بقاعدة أن الشك يفسر لمصلحة المتهم، وأن الظن لا يغنى من الحق شيئا، ولكن إذا كنتم قد فعلتموها وأفلتم من العقاب فى الدنيا واستنادا إلى القانون الوضعى الذى تجحدونه، فإن الله سبحانه وتعالى الذى تدعون أنكم تطالبون بتطبيق شريعته هو أحكم الحاكمين، ستقفون أمامه فيقضى بينكم، ويومها ستشهد أيديكم وأرجلكم عليكم وتسألونها لم شهدتم علينا فتقول لكم «أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء»، لا تحت وطأة التعذيب ولا تحت وطأة الإكراه، ولكن بإرادته ومشيئته سبحانه وتعالى».

اكتملت السمات الأخيرة لهذه الصورة الرمزية البالغة القتامة بمعاقبة الإرهابى صفوت عبد الغنى المتهم الأول والقيادى البارز فى الجماعة الإسلامية بالأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات، والإرهابى ممدوح يوسف بالأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات، ومعاقبة محمد أحمد على وشهرته محمد النجار بالأشغال الشاقة لمدة خمس عشرة سنة عن تهم حيازته مفرقعات ومتفجرات وأسلحة نارية مشخشنة، وذخائر وأسلحة بيضاء والتزوير فى أوراق رسمية واستعمالها، وبالنسبة للمتهم محمد سيد عبد الجواد فقد حكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات عن تهم مماثلة أيضا. وتمت معاقبة الإرهابى عثمان جابر الظهرى بالأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات، والحكم على الإرهابى عادل سيد قاسم شعبان بالأشغال



الشاقة لمدة خمس سنوات، أيضا عوقب الإرهابى إبراهيم إسماعيل عبد الحميد علام بالسجن لمدة خمس سنوات عن تهمة التزوير فى محررات رسمية واستعمالها وتزوير جوازى سفر. وحكم على كل من الإرهابى حامد عبد العال، وهانى يوسف الشاذلى بالسجن لمدة ثلاث سنوات.

وفى نفس القضية حصل أربعة عشر إرهابيا على الحكم بالبراءة!!

الصورة كانت لها بقية (*) . لم تظهر إلا بعد ذلك بسنوات، وبالتحديد عندما نظرت المحكمة العسكرية العليا فى «قضية العائدون من أفغانستان» بالإسكندرية. برئاسة اللواء أحمد عبد الله. فقد حوى ملف الدعوى العسكرية تفريغات لشرائط فيديو كاسيت سجلت يوم ١٠ يونيو ١٩٩١، فى أول جلسة من جلسات المحاكمة الخاصة بواقعة اغتيال الدكتور رفعت المحجوب. وأيضا فى جلسة ١٥/٧/١٩٩١.

لقد كانت تحتوى هذه التسجيلات، بالصوت والصورة، على مادار داخل الجلسة من قبل الإرهابيين المتهمين فى القضية ولقد جرت الأحداث على الوجه التالى:

- الإرهابى صفوت عبد الغنى: إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة ويوم يقوم الأشهاد.

- إرهابى آخر: إسلامية.. إسلامية.. إسلامية.. إسلامية .. مهما كان.

- الإرهابى صفوت: نصر من الله تكفل به الله عز وجل لينصر بنا بمجرد أن قتل الطاغوت الهالك أنور السادات.. ونظام يرتعش ويرتجف ويموت بمجرد أن مات الطاغوت الهالك رفعت المحجوب.. نظام يموت ويرتجف ويرتعش لمجرد أن يقتل رؤوس النظام.

ونلاحظ هنا كم الفجاجة والكذب والنفاق لأننا نعرف جميعا أن الإرهابيين كانوا يستهدفون اللواء عبد الحليم موسى وزير الداخلية، ولكنهم

(*) من قتل المحجوب .. منتصر الزيات ١٩٩٣ . وكان عنوان هذا الكتاب هو «احنا اللى قتلنا المحجوب» .. لكن الرقابة رفضت هذا العنوان وأصبح «من قتل المحجوب».

قتلوا الدكتور المحجوب بالخطأ عندما تصادف مرور سيارته فى نفس الوقت ونفس المكان.

- الإرهابى عزت السلامونى: وبدأنا لهم بالمحجوب.

- إرهابيون آخرون: وبدأنا لهم بالمحجوب.

- الإرهابى عزت: وحنقضى على الباقين.

- آخرون: وحنقضى على الباقين.

- الإرهابى عزت: يا علاء محيى الدين خدنا بتارك من الظالمين «وهو هنا يقصد واقعة اغتيال الإرهابى علاء محيى الدين المتحدث الإعلامى باسم الجماعة الإسلامية».

- الإرهابى صفوت: نظام ضئيل.. يخاف النظام ويرتعش ويموت إذا ضرب واحد من أعضائه. يموت نظام بأكمله إذا هرب صفوت أو غير صفوت، من هذه المجموعة القليلة التى تعد على أصابع اليد. إن ما نبشر به النظام أن لدينا الآلاف والآلاف من هذه المجموعات، ولقد بدأناهم بالمحجوب وبإذن الله.. بإذن الله لن يقر لنا جفن ولن يهدأ لنا بال ولن يستريح لنا قرار حتى نأتى برأس أكبر رأس فى هذا البلد!

هتافات: باسم الإسلام الله أكبر.. أقسمنا يمينا لن نقهر.. وكتاب الله بأيدينا نقتحم اليابس والأخضر.

- الإرهابى صفوت: طالما يضرب المسجونون والمعتقلون طالما مصر على تلفيق القضايا.. طالما مصر على أخذ النساء كرهائن وتعذيبهن فى أقسام الشرطة.. مصرون على أن نأتى برأسه قسما ولقد دخلنا فى السجون سبعة أعوام ما أسكتتنا.. قولوا لموسى لا يفرح أنه قبض على صفوت، أو أنه قطع ياسر أو أنه قتل صلاح وعبد الفتاح لا تفرح.

هتافات من آخرين تنادى بأسماء رموز الدولة ومرددة بعد كل اسم: الشيخ صفوت فى انتظارك.. تهون القيود.. تهون السجون.. ولكن إسلامنا لن يهون.

ـ الإرهابى صفوت: أيها الإخوة الأحباب.. إن هذا الدين باق.. لا ولم ولن يموت.. لو قدر له أن يموت لمات يوم بدر، ولمات يوم أحد.. إن هذا الدين باق لا ولم ولن يموت.. ولو قدر له أن يموت لمات يوم حروب الصليبيين.

إن هذا الدين باق.. لا ولم ولن يموت.. ولو قدر له أن يموت لمات يوم أن قتل حسن البنا وخالد الإسلامبولى.. ويوم أن قتل إخوانه.. أيها الإخوة.. حقيقة ثابتة راسخة أن هذا الدين باق لا ولم ولن يموت.. وأنه سوف ينتصر وأنه سوف يسحق الظالمين وأنه سوف يسحق الكافرين وأنه سوف يقطع رقاب الجبابرة.. نعم أيها الإخوة هذا الدين سوف ينتصر لأن الله وعد أن يتكفل بنصره.. كتب الله لأغلبن أنا ورسلى.

المثير أن هذه التسجيلات لم تقدم أثناء محاكمة الإرهابيين الذين اغتالوا الدكتور المحجوب، رغم أنها تمت داخل المحكمة ذاتها، لكنها قدمت بعد ذلك أمام المحكمة العسكرية العليا!!

هذه الصورة والحكاية الرمزية تدل على المناخ الذى ترعرع فيه الإرهاب حتى تصور أن سعة صدر الدولة ضعف وخوف وارتعاش. ولم يفطنوا إلى «القوة الكامنة» داخل مصر والمصريين والتى إن تحركت وحددت لها هدف، فإنها قادرة على سحق أى عدو يهدد الحياة على أرض النيل التى كانت مهدا للحياة منذ فجر التاريخ.

لقد كانت هناك فترة للحوار، بناء على اقتراحات بعض من المسئولين، من أجل إجراء مصالحة، لكن كل هذا كان مضيعة للوقت بعدما تجاوز الإرهابيون كل الخطوط الحمراء، وبدأوا فى حرب الاغتيالات. لقد كان تركيزهم منصباً فى المقام الأول على الإرهاب والتخويف.

لقد كان الحوار منذ البداية أمرا غريبا. فكيف يتصور أحد أن تجدى لغة الحوار مع إرهابى يحمل السلاح فوق كتفه ويمسك بالقنبلة بين يديه، ويوزع طلقاته يمينا ويسارا. ليحرق الأخضر واليابس!؟

وتعود فكرة هذا الحوار المزعوم(*)، كما يروى تفاصيلها منتصر الزيات محامى الجماعات الإرهابية إلى عام ١٩٩٠. وبالتحديد فى شهر مارس عندما قام وزير الداخلية فى ذلك الوقت عبد الحليم موسى بطلب وساطة د. مصطفى مؤمن، وهو صديق مشترك لكل من مفتى الإرهابيين عمر عبد الرحمن، والوزير عبد الحليم موسى. ولقد امتنع عمر عبد الرحمن فى بداية الأمر، لكن الدكتور مصطفى مؤمن استطاع إقناعه بمقابلة وزير الداخلية. وغادر عمر عبد الرحمن الفيوم إلى القاهرة لمقابلة عبد الحليم موسى بصحبة مصطفى مؤمن الذى قام بتوصيله بسيارته، واستمرت الجلسة ثلاث ساعات ونصف الساعة. وكانت جلسة ودية تماما، على حد قول منتصر الزيات. ولقد طلب عبد الحليم موسى من مفتى الإرهابيين عمر عبد الرحمن أن يساعده فى إيقاف كل أشكال العنف، وفى المقابل طلب عمر عبد الرحمن من وزير الداخلية أن يمكن أفراد الجماعات من الدعوة واعتلاء المنابر، ثم قال له: «أول شيء أن يرفع الحصار المفروض حول بيتى علشان أعرف أقنع الأولاد» (ويقصد الإرهابيين). وطبقا لنفس الرواية؛ فإن عبد الحليم موسى اتصل تليفونيا باللواء محمد مهران مدير أمن الفيوم فى ذلك الوقت، وطلب منه أن يترك عمر عبد الرحمن يتحرك بحريته وأن يرفع الحصار المفروض حول منزله. لكن هذا لم يحدث؛ إلى أن تمكن الدكتور مصطفى مؤمن من أن يحصل على موافقة عبد الحليم موسى لكى يسافر عمر عبد الرحمن خارج البلاد.

ولقد كانت ـ أيضا ـ هناك مفاوضات مماثلة تم إجراؤها مع الإرهابى عبود الزمر؛ فكان وزير الداخلية يحضر عبود من السجن ويقابله فى ديوان الوزارة، كما كان يقابله أيضا مدير مصلحة السجون، ومدير مباحث أمن الدولة فى ذلك الوقت.

ثم تطورت الفكرة بعد ذلك من خلال ما كان يسمى فى ذلك الوقت بلجنة الحكماء، وكان أبرز أعضائها الشيخ الشعراوى، والشيخ الغزالى، ود. عبد الرحيم صقر، ود. محمد سليم العوا، وفهمى هويدى، بالإضافة إلى عدد

(*) كتاب حوارات ممنوعة - وائل فوزى ١٩٩٥.

من أبرز قيادات الجماعات الإرهابية، الذين كان يتحدث معهم محامى الجماعات الإرهابية منتصر الزيات والذى كان يقوم بدور الوسيط، وهم: عبود الزمر وناجح إبراهيم الذى كان أميرا للجماعة الإسلامية. ويقضى عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة فى قضية اغتيال السادات، وصفوت عبد الغنى وممدوح على يوسف، ونبيل نعيم الذى كان خليفة للإرهابى أيمن الظواهرى فى قيادة جماعة الجهاد فى مصر، ومجدى محمد محمد سالم أحد أبرز قيادات تنظيم طلائع الفتح الإرهابى. وكان كل هؤلاء محكوما عليهم بالأشغال الشاقة. ويقضون فترة العقوبة داخل السجون المصرية.

وطبقا لنفس رواية الزيات، فإن الإرهابيين طلبوا خلال هذا الحوار أن تترك لهم مساجدهم «لاحظ كلمة مساجدهم؟» التى كانت قبل أن تصير الأمور إلى ما صارت عليه «يقصد ضم المساجد إلى وزارة الأوقاف»، وأن توقف المحاكم العسكرية، وأن يوضع جدول زمنى للإفراج عن المعتقلين.

لقد كانت هذه كل الصورة فى ذلك الوقت، فعندما تولى الرئيس مبارك مقاليد الأمور بعد اغتيال السادات، قام بعمل مصالحة وطنية مع كافة القيادات السياسية. وأفرج عن المعتقلين فى أحداث سبتمبر ١٩٨١. وحقق انفراجة ديمقراطية كبيرة، ونال حب ودعم كافة التيارات السياسية الوطنية فى مصر.

لكن الجماعات المتطرفة لم تستوعب هذا الأمر. رغم أن الفرصة كانت متاحة أمامها لكى تعود إلى صوابها، وتترك أسلحتها وتتخلى عن العنف، وتذوب بشكل طبيعى داخل المجتمع وتمارس حقوقها السياسية طبقا للدستور وسيادة القانون.

لقد أراد الرئيس مبارك أن يتيح لكل قوى الوطن فرصة التفرغ لعملية إعادة البناء وترميم شروخ الوطن الذى كاد أن يتمزق. ولكن الجماعات الإرهابية فهمت الأمور بشكل خاطئ، بل تعمدت أن تتجاهل نداء العقل، بعدما اعتقدت أن الدولة فى حالة ضعف. فقاموا باختراق كل الخطوط الحمراء. واعتقدوا أنهم بالعنف والإرهاب يستطيعون الامساك بزمام الأمور، ويفرضوا

عهدا من الظلام والعنف على الوطن بأكمله. وأن يصبحوا دولة داخل الدولة وتكون لهم السطوة والسيطرة.

وهنا كان لابد أن تتغير سياسة الدولة تجاه هذه الفصائل الإرهابية والتصدى لهم بحزم طالما لم ينصتوا إلى صوت العقل، وحاولوا مرارا وتكرارا تهديد أمن الوطن.

كان الأمر واضحا تماما. فلم يكن الإرهابيون يبغون الحوار أو المصالحة، أو العودة إلى نسيج الوطن والانخراط فى الحياة كمواطنين صالحين. لكنهم كانوا يهدفون من وراء كل هذا إلى فرض وجودهم وانتزاع الإعتراف بقوتهم فى نفس الوقت الذى يواصلون فيه الإعداد لعمليات إرهابية أكبر، فكانت أوهام الحوار بمراحلها المختلفة محطات لالتقاط الأنفاس والإعتراف بالوجود وتنظيم الصفوف والتخطيط لما هو أسوأ.

ولقد أيقن الرئيس مبارك كل هذا بفطنته، وكم كان انزعاجه عندما سمع عن محاولات الوساطة ولجنة الحكماء، وألغى ذلك على الفور، ثم بدأ يخوض المعركة الحتمية التى كانت من أخطر المعارك فى الحياة السياسية المصرية. ولقد خاض المعركة بعقلية المقاتل المحترف الغيور على وطنه، الذى يعلم جيدا ويقدر تماما مدى المسئولية الملقاة على كاهله والميراث الذى تسلمه من العهود السابقة، وبعقلية القائد الحريص على إنجازاته وعلى المكاسب التى حققها لوطنه.

فرص .. وخطوط حمراء !

ومن السمات الأساسية للرئيس مبارك أنه يعطى كل الفرص حتى آخر لحظة، لكنه فى نفس الوقت يضع خطوطا حمراء من أجل الحفاظ على أمن الوطن، وهذا ما فعله مع الجماعات الإرهابية. لكنهم تعدوا واخترقوا هذه الخطوط الحمراء. فكان لابد من الحسم. وواكب ذلك أن المجتمع كان قد عانى لسنوات طويلة من حماقة الإرهاب، فكان أن تكاتفت إرادة الجميع على ضرورة القضاء على هذا الخطر.

كانت مسئولية جسيمة من مسئوليات الرئيس مبارك صادفت فترة تجديد رئاسته، بعدما وجد أن كل إنجازاته نحو بناء دولة عصرية قوية، معرضة للضياع بسبب الإرهاب. وبالفعل استطاع الرئيس مبارك أن ينال من الإرهاب، ويقضى على الهجمة الشرسة التى تعرضت لها مصر التى كانت الهدف الأول للإرهاب والإرهابيين. لذلك انقلبت الأمور، ليركز الإرهابيون جهودهم فى محاولات لاغتيال الرئيس مبارك شخصيا، لأنه أصبح رمزا للاستقرار والصمود، ورمزا للقضاء على الإرهاب واستئصاله تماما من مصر. وبالتالى من باقى أرجاء المنطقة.

فى هذه المرحلة، ظهرت صورة جديدة غير تلك التى ذكرناها فى بداية هذا الفصل من الكتاب. وأصبحت هناك قوات خاصة لمكافحة الإرهاب تقوم على التخطيط العلمى السليم. وتبدلت الصورة وانقشع ظلام الإرهاب بعد تشكيل المحاكم العسكرية السريعة والعادلة، بعد أن كانت تستغرق محاكمات الإرهابيين سنوات، يتحولون خلالها إلى نجوم وأبطال خاصة، أن بطء التقاضى بسبب ضخامة وتكدس القضايا بأرقام فلكية أمام كل المحاكم المصرية أدى إلى شعور المواطنين بأخطاء العدالة البطيئة وتأثيرها المدمر على حياة المجتمع، كما أن هذا البطء جعل الإرهابيين يشعرون بالقوة وبأنه لاعقوبة عليهم، فجاءت المحاكم العسكرية لتقدم الحل السريع والعادل حتى لايفلت زمام الأمور.

لم تكن محاولات الاغتيال المتكررة التى استهدفت كبار المسئولين ورموز الدولة هى الوسيلة الوحيدة التى حاول من خلالها الإرهابيون هدم أمن المجتمع والقضاء على سلامته.

كان هناك محوران آخران حاول الإرهابيون من خلالهما تحويل هذا الوطن إلى جثة هامدة تشتعل فيها نيران التطرف والفتنة، وتحيط بها من كل جانب المشاكل الاقتصادية.

أحد المحاور، كان يتعلق بضرب الاقتصاد المصرى، تارة بضرب البنوك

وإنشاء بدعة شركات توظيف الأموال، وتارة أخرى بضرب السياحة فهم كانوا يعلمون جيدا أن السياحة هى أحد مصادر الدخل القومى الرئيسية، بل إنها ترتبط مباشرة ليس فقط بمن يعملون فى مجالات السياحة المختلفة، ولكن أيضا ترتبط بأشكال مختلفة بالحياة الاقتصادية لرجل الشارع العادى، الذى يجد مورد رزقه بشكل مباشر أو غير مباشر من خلال تدفق حركة السياحة إلى مصر.

لقد دخلت السياحة والسياح ضمن الدوائر المستهدفة من قبل الجماعات الإرهابية، بشكل واضح وصريح (*) وكانت إحدى العلامات البارزة على ذلك حادثة تفجير مقهى بميدان التحرير اعتاد السياح الجلوس عليه، وذلك من خلال قنبلة موقوتة مساء ٢٦ يناير ١٩٩٣ مما أدى إلى مقتل وإصابة عشرين شخصا بينهم عدد من السائحين الأجانب، فضلا عن ترويع ملايين المصريين بهذا التفجير الذى وقع فى أهم ميادين العاصمة.

هذا الاعتداء الإجرامى البشع، شكل تطورا خطيرا فى النشاط الإرهابى سواء على مستوى عدد الضحايا الذى لم يسبق له مثيل من قبل، أو من حيث الأداة المستخدمة - قنبلة موقوتة- وأيضا من حيث اللامبالاة الكاملة بأرواح الأبرياء أجانب ومصريين، وهذا ما يؤكده المكان الذى تم اختياره، وهو ميدان التحرير أهم ميادين العاصمة، وأغزرها حركة، أو الزمان وهو أمسية رمضانية، وكذلك فإن اختيار مقهى شعبى مصرى يهدف إلى قتل وإصابة وترويع أكبر عدد ممكن من الأبرياء. وهى المرة الأولى منذ نحو نصف قرن، التى تشهد فيها مصر نشاطا إرهابيا يستخدم القنابل الموقوتة لترويع المجتمع المصرى من أجل تحقيق أهداف سياسية ما.

فى نفس العام ١٩٩٣ حدث تطوير وتوسيع فى العمليات التى تستخدم فيها العبوات الناسفة، فقد بلغ عدد العمليات من هذا النوع ١٨ عملية، تم ضبط سبع عمليات منها، وأبطل مفعول عبوات ناسفة بنسبة ٤١٪، وفى

(*) تقارير للمنظمة المصرية لحقوق الإنسان.

عمليتين من هذه العمليات تم إلقاء القبض على الإرهابيين من قبل المواطنين أنفسهم، وكانت نصف هذه العبوات الناسفة تستهدف المواطنين الأبرياء، بينما كان نصيب الشرطة ٣٠٪، ٨٪ السياحة، ٤٪ المسئولين، وهذا يدل على أنهم أرادوا ترويع كافة فئات المجتمع، وشل حركته تماما حتى يصبح أسيرا لهم من أجل تحقيق أغراضهم الدنيئة.

يلاحظ أيضا أن «تكتيك» العبوات الناسفة قد مر عبر ست مراحل خلال تسعة شهور فقط، فقد كانت كلها محلية الصنع، وهذا يؤكد أن وراء عمليات التطوير فى هذه التقنية خبراء مدربين، وارتبط هذا بموسم عودة الإرهابيين من أفغانستان.

وبنظرة فاحصة؛ نجد أن هذه العمليات بدأت على استحياء، وسرعان ما وجد الإرهابيون أنها قد تحقق أهدافهم فى ترويع المجتمع وزعزعة استقراره. وأيضا أرادوا أن يظهروا أمام رجل الشارع العادى، بل أمام العالم كله، بصورة القادر على فعل أى شىء وقتما شاء، وأنهم يسيطرون على كل شىء فى مصر.

لقد تطور التحدى والتصعيد ضد رموز الدولة، لتحقيق هذه الأهداف، حيث بدأت حوادث الإرهاب مستهدفة جنودا وصغار ضباط الأمن، ثم امتدت إلى ضباط متوسطى الرتب، ثم إلى كبار ضباط الأمن من رتبة لواء، لتمتد بعد ذلك إلى الوزراء، ووصولا بعد ذلك إلى الدكتور عاطف صدقى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت.

فى نفس الوقت تزايدت العمليات الإرهابية الموجهة ضد السياحة والسياح. وكان أبرزها تلك التى وقعت صباح يوم ١٨ أبريل ١٩٩٦ أمام فندق «أوروبا» بشارع الهرم والتى أسفرت عن مصرع ثمانية عشر سائحا يونانيا وسقوط خمسة عشر مصابا.

وبلغ عدد عمليات الإرهاب ضد السياحة منذ عام ١٩٩٢ وحتى عام ١٩٩٤ اثنتين وعشرين عملية ضد السائحين الأجانب، وأسفرت عن مصرع

ثمانية أشخاص، مما يؤكد مدى استهانة هذه الجماعات الإرهابية بأرواح الأبرياء ومحاولة ضرب الاقتصاد المصرى بأية طريقة.

وكعادتهم دائما، حاول الإرهابيون تضليل الرأى العام خاصة خارج مصر، وإلصاق التهمة بالدولة والحكومة، بزعم أن حوادث العنف ضد السياح جاءت نتيجة للتضييق عليهم من قبل الدولة ومنعهم من اعتلاء المنابر لكى يصل صوتهم إلى الشعب؟؟

ومن ثم أرادوا أن يسمعوا الدنيا كلها صوتهم من خلال هذه الجرائم الإرهابية.

ولم تتوقف أكاذيبهم ومحاولاتهم قلب الحقائق عند هذا الحد، بل كانوا دائما يحاولون أن يظهروا أمام المجتمع الدولى بصورة الحملان الوديعة المجنى عليها، وذلك من خلال بياناتهم المملوءة بالأكاذيب، والتى كانوا يصدرونها عقب بعض هذه العمليات الإرهابية، ويزعمون فيها أنهم حريصون على عدم إزهاق أرواح السياح (؟!) ولا يبغون سوي أن تكون هذه مجرد عمليات إعلامية حتي يشعر العالم بهم ويسمع صوتهم (؟!) بل وصلت بهم محاولات التضليل إلى حد الاعتذار فى أحد البيانات عن مصرع سائحة ألمانية فى حادث إرهابى وقع فى محافظة قنا!!

وفى نفس سياق محاولاتهم لتقويض الاقتصاد وتجويع الشعب المصرى كله، والذى وقف صامدا ورافضا لهؤلاء الإرهابيين، نجدهم وقد قاموا بالاعتداء على البنوك. وأصدروا بياناتهم التى تحذر المستثمرين الأجانب من الاستثمار فى مصر، بحجة أنه لو لم يجد الشعب لقمة العيش سوف يثور على الحكومة ويقضى عليها، وبذلك يتحقق لهم مالم يستطيعوا تحقيقه هم بقنابلهم ورصاصاتهم.

لقد بدأت الموجة الجديدة من العنف والموجهة ضد منشآت الدولة الاقتصادية فى عام ١٩٩٤. ففى السادس من فبراير انفجرت عبوة ناسفة صغيرة الحجم أمام البنك المركزى بشارع رمسيس وسط القاهرة. وفى السادس عشر من نفس الشهر وقع اعتداء هائل على بنك الإسكندرية -

الكويت الدولى فى منطقة المهندسين بمحافظة الجيزة. وبعد ذلك بأسبوع واحد فقط وقع اعتداء آخر على البنك المصرى الأمريكى.

كان هناك محور آخر حاولوا استخدامه بإشعال نار الفتنة الطائفية، حتى يقاتل الشعب بعضه البعض، وتأكل الأمة نفسها لتصبح فريسة سائغة لهم بعد أن تخور قواها، فأشاعوا أن المسيحيين يخزنون الأسلحة فى الكنائس، ويعملون على إقامة دولة مسيحية فى الصعيد (!!). ثم تحولوا إلى العنف المباشر، عندما وجدوا أن النسيج الوطنى لايزال متماسكا، ولعدم استجابة أبناء الوطن لعمليات التحريض ومحاولات الوقيعة بين أبناء الوطن الواحد.

وكان من بين هذه العمليات الإرهابية التى حاولت إشعال نار الفتنة، مصرع ثمانية أشخاص كانوا أمام دير المحرق بأسيوط فى الثانى عشر من مارس ١٩٩٤، حيث كانوا فى انتظار مقابلة أحد رهبان الدير، وخلال نفس الشهر تعرض بعض الأقباط لاعتداءات أخرى، حيث شاع الاعتقاد بين الجماعات الإرهابية بأن قتال المسيحيين - ومن فى حكمهم - من أعمال الجهاد فى سبيل الله حيث جاء فى كتاب «القول القاطع فيمن امتنع عن الشرائع». وهو من مطبوعات الجماعة الإسلامية للإرهابيين .. عصام دربالة وعاصم عبدالماجد، «إذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد، ومضمونه هو أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هى العليا، فمن امتنع عن هذا قوتل باتفاق المسلمين.. أما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة، كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى والزمن ونحوهم فلا يقتل عند جمهور العلماء، وإلا أن يقاتل بقوله أو بفعله، وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع لمجرد الكفر».. ثم يقول نفس الكتاب: «أما أهل الكتاب والمجوس فيقاتلون حتى يسلموا أو يعطوا الجزية وهم صاغرون».

وتكررت حوادث قتل الأقباط فى الصعيد، خاصة فى محافظة المنيا، وكان الضحايا ما بين مزارع وموظف وميكانيكى وبقال وطبيب، وكان من بينهم أيضا أصحاب محال الذهب، مثل الحادثة التى وقعت فى ٣٠ أغسطس ١٩٩٥ حيث هاجم أربعة مسلحين من الجماعات الإرهابية محل الذهب

الذى يملكه « فهمى حنا » - بمدينة مغاغة - وأطلقوا عليه الرصاص وقتلوه، ثم قاموا بالاستيلاء على المشغولات الذهبية الموجودة بالمحل.

فى نفس الوقت كانت هناك محاولات تجرى لشق الصف الوطنى، من خلال ما يمكن أن يطلق عليه «مليشة» الوطن، أى جعله عبارة عن فصائل وميليشيات مختلفة، من خلال مظاهر الحياة العامة، مثل الملصقات الموجودة على زجاج السيارات، والتى كانت تجعل سيارة المصرى المسلم مختلفة عن سيارة المصرى المسيحى.

ولقد كان للزميل إبراهيم سعده دور فى كشف هذه الظاهرة من خلال مقال له فى جريدة الأخبار. وبالفعل تنبهت الجهات المسئولة للأهداف والنوايا السيئة وراء هذه الملصقات وأصدرت قانونا بمنعها وتجريمها حتى لا يتم تقسيم المجتمع طبقا للهوية الدينية.

امتداد دائرة العنف

هناك أيضا محاولة مماثلة جاءت بفرض ملابس أفغانية، مثل الجلباب وإطلاق اللحية بحجة أنها زى إسلامى، وكذلك فرض الحجاب على النساء، إلى الدرجة التى وصلت إلى فرض الحجاب حتى على الفتيات الصغيرات منذ المرحلة الابتدائية، وكان كل هذا يهدف إلى زرع بذور الفرقة وتغيير عادات وتقاليد المجتمع المشتركة. وحتى يحدث نوع من الفرز الطائفى، ومن ثم إحساس كل طرف بالاغتراب والاختلاف عن الطرف الآخر، تمهيدا «للصدام الأكبر» بين فئات المجتمع، وهو صدام حتمى مادام المجتمع قد تم فرزه وتقسيمه إلى أبيض وأسود، فلابد من بعد ذلك أن يقع «الصدام الأعظم» لينفجر المجتمع من داخله!

لم تتوقف دائرة العنف عند هذا الحد، فلقد اتسعت لتشمل المفكرين والكتاب، بداية من اغتيال الكاتب فرج فودة، والتبرير المعلن لهذه العملية والإنذار الصريح الموجه لكل المفكرين والكتاب والذى جاء ضمن بيان الجماعات

الإرهابية بعد عملية الاغتيال.

لقد برر تنظيم الجماعة الإسلامية قتل د.فرج فودة، أحد مؤسسى المنظمة المصرية والجمعية المصرية للتنوير وحقوق الإنسان، بأن السبب هو الخلافات الفكرية، وأنه - أى فرج فودة - نادى بفصل الدين عن الدولة، وفضَّل القانون الوضعى على شرع الله، وانتهى هذا البيان الذى كان يحمل عنوان «نعم قتلناه» بإنذار مفتوح لكل المثقفين إذ جاء فيه «اليوم فرج فودة ، وغدا لا يعلم مكنونه إلا الله، فليحذر كل امرىء نفسه، وكل امرئ حسيب نفسه». وكانت هناك أيضا قوائم سوداء تضم عددا من المفكرين والكتاب والصحفيين والفنانين والشخصيات العامة تمهيدا لاغتيالهم.

وفى شهر أكتوبر ١٩٩٤ وقعت محاولة اغتيال الكاتب الكبير نجيب محفوظ، وهو الحادث الذى اهتز له الشارع العربى بصفة عامة والشارع المصرى بصفة خاصة، وسط مخاوف من تكرار ذلك لرموز الفكر والسياسة والإعلام، ولعل هذا يفسر ما تقوم به الآن إحدى القنوات الفضائية العربية «قناة الجزيرة» بتكفيرها لرموز الفكر فى تاريخ مصر المعاصر، بل حتى الذين رحلوا لم يفلتوا من هذه الهجمة مثل عميد الأدب العربى د.طه حسين، والأديب والمفكر عباس محمود العقاد، كل ذلك تحت زعم الرأى والرأى الآخر.

نعود إلى حادثة اغتيال الأديب الكبير نجيب محفوظ، حيث طعنه إرهابى بطعنه بسكين فى رقبته، مما أدى إلى قطع الشريان الرئيسى بالرقبة. وتم ضبط المجرم الإرهابى الذى اتضح فيما بعد أنه حتى لم يقرأ شيئا للأديب الكبير حتى يحكم عليه بالموت، وأنه يعمل بائعا للسمك.

جاءت هذه المحاولة فى الذكرى السادسة لحصوله على جائزة نوبل، فى أعقاب الحملة التى تبناها عدد كبير من المثقفين لرفع الحظر عن روايته المعروفة «أولاد حارتنا»، وقد تحولت إلى حملة مضادة شارك فيها للأسف بعض شيوخ وعدد من الصحف التى تساند الجماعات الإرهابية، ووصلت الحملة ذروتها عام ١٩٨٩ بالفتوى التى أعلنها عمر عبدالرحمن مفتى

الجماعات الإرهابية، وأهدر فيها دم نجيب محفوظ باعتباره كافرا مادام لم يعلن توبته وندمه على تأليفه لهذه الرواية التى سبق أن صودرت باعتبارها نوعا من الكفر (!!).

وقد سبق محاولة الاغتيال ببضعة أشهر وبالتحديد فى يونيو ١٩٩٣، أن قام الشيخ الراحل محمد الغزالى بإصدار فتوى كانت كفيلة بتحريض أى متهور لارتكاب جريمة قتل دون عقاب إذ أعلن فيها: «إن كل من يعارض تطبيق الشريعة الإسلامية، هو كافر ومرتد عن الإسلام، وإن قيام جماعات أو أفراد بقتل مثل هؤلاء لا يستوجب عقابهم، باعتبار أنهم يقومون بتطبيق الحدود». وهذه الفتوى تعتبر تكفيرا لقطاع كبير من المسلمين، ودعوة صريحة للقتل خارج القانون، وإضفاء الشرعية على أعمال الإرهاب والعنف المسلح!

وجاءت فتوى الشيخ محمد الغزالى فى شهادته أمام محكمة أمن الدولة العليا طوارئ يوم الثلاثاء ٢٢ يونيو ١٩٩٣ وذلك بناء على طلب الدفاع عن المتهمين باغتيال المفكر د.فرج فودة. وقد برر الغزالى ذلك بأنه إعمال لفتوى مماثلة صدرت عن جبهة علماء الأزهر، والتى كان يسيطر عليها فى ذلك الوقت بعض من المشهورين بالمواقف شديدة التطرف.

وقد نشرت هذه الفتوى شديدة الخطورة فى كافة الصحف اليومية دون تكذيب أو تصحيح منه لما جاء فيها.

ولقد مثلت هذه الفتوى - مع الأخذ فى الاعتبار المكانة الروحية لقائلها - مؤشرا خطيرا على مدى محاولات الجماعات الإرهابية ومن يساندهم من المتسترين خلف عباءة الدين، لضرب كافة أوجه الحياة فى المجتمع، ومن لم يقتلوه رميا بالرصاص أو بتفجيره بعبوة ناسفة، قتلوه حيا بتكفيره، ومنعه حتى من مجرد الإعلان عن رأيه، بل وضع رقبته رهن أفراد جهلة، ينفذ كل منهم قانونه الخاص وفق مفاهيم مغلوطة للشريعة الإسلامية السمحة، والتقييم الشخصي لإيمان الآخرين بالإسلام، وبذلك تكون دعوة صريحة لبسطاء المسلمين لانتزاع اختصاصات القضاء لأنفسهم.

وباختصار شديد كانت تلك الدعوة هى دعوة لاغتيال «العقل» المصرى، فالعقل هو وحده الذى يستطيع أن يقف فى مواجهة هذا الارتداد الفكرى والحضارى وهذا الاتجاه الفوضوى .

تكتيك الحربـاء!

وفى نفس الوقت تؤكد كل هذه الحوادث أن الإرهاب مثل «الحرباء» يتغير ويتشكل فى صور مختلفة. فعندما يجد نفسه محاصرا، يغير من جلده، ويأتى فى صورة أخرى. ولا مانع من أن يرتدى مسوح الحملان تارة، ويظهر على حقيقته فى صورة الذئاب تارة أخرى. فالهدف لديهم يبرر الوسيلة تماما، مثلما قال السياسى الداهية ميكيافيللى والذى بدأت مع أفكاره معظم الشرور السياسية فى العالم، ومنها شرور استغلال الدين فى أمور الدنيا!

ورغم كل هذا، فإنه بمجىء عام ١٩٩٧، كانت السياسة الأمنية والمحاكم العسكرية قد حققت أقصى نجاح لها فى مواجهة الإرهاب، وتمكنت من إضعاف الجماعات الإرهابية وتفكيكها ومحاصرتها داخل مواقع محدودة فى بعض محافظات الصعيد، خاصة بعد ضرب معظم خطوط الاتصال بين عناصرها، ليدخل الإرهاب مرحلة جديدة فى صورة عمليات الانتقام الأعمى والعمليات العشوائية اليائسة تحت شعار «قاتل ومقتول». وامتلأت بياناتهم بشعارات الانتقام واليأس «سننتقم لإخواننا الذين قتلهم النظام على أعواد المشانق»، و«الثأر لإخواننا الشهداء». ثم اتجهوا للتدمير تحت شعار «سندمر اقتصاد كل نظام كافر فاجر» و«سنخرب منشآته وكيانه». ولقد كانت كل هذه الشعارات تنم عن يأس شديد منهم إذ يقولون «إن باطن الأرض خير لنا من ظاهرها»، و«الموت خير لنا».

وفى هذه المرحلة التى أخذ يلفظ فيها الإرهاب أنفاسه الأخيرة، بدأ التخبط والتضارب يسيطران على كافة تصرفاتهم.

واستمرت الدولة فى تفعيل سياستها الأمنية وحصار العناصر النشطة تباعا، خاصة تلك الموجودة خارج البلاد. وقد أثمرت هذه السياسة بشكل واضح،

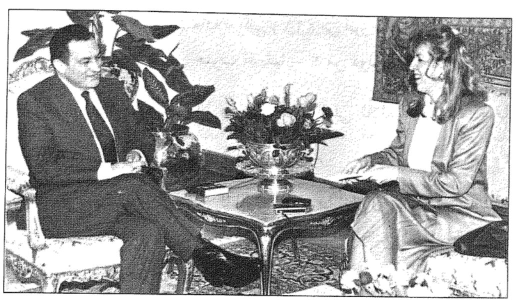
حيث شهد عام ١٩٩٩ استعادة حوالى (٢١) من أبرز الكوادر الإرهابية (١٥ من دولة الكويت – ٣ من جنوب أفريقيا – ٣ من دولة أذربيجان).

وهكذا تم القضاء على الإرهاب فى مصر على ثلاثة مستويات: محليا وإقليميا وعالميا.

أما على المستوى المحلى فقد تم ذلك من خلال المواجهة المسلحة الفعالة بين أجهزة الأمن المصرية وبين الإرهابيين وبنفس السلاح الذى لجأ إليه الإرهابيون وليس أبدا من خلال الحوار!

ومع المواجهة المسلحة كان التعاطف الشعبى من جانب كل فئات المجتمع المصرى إلى جانب الدولة وإلى جانب رجال الأمن، وهذا التعاطف كان له دور كبير فى الكشف عن الإرهابيين بل فى مطاردتهم فى بعض الأحيان، كما حدث خلال محاولة اغتيال اللواء عثمان شاهين قائد المنطقة العسكرية المركزية «محافظ المنوفية حاليا» وذلك عندما انطلق أبناء زينهم – حيث وقعت المحاولة – يطاردون الإرهابيين بالسكاكين والسواطير قبل وصول رجال الأمن!

وعلى المستوى الإقليمى كان الأداء الأمنى المصرى والنجاحات التى تحققت فى مواجهة الإرهاب هى فى ذات الوقت ضربات متتالية موجهة إلى الإرهاب بشكل عام، وجاء الحسم على هذا المستوى خلال العملية الفاشلة ضد الرئيس مبارك فى مدينة «أديس أبابا» على الرغم من الإرهاب الإقليمى كان قد ركز كل قواه وكل إمكانياته فى هذه المحاولة، ومن ثم؛ كان فشلها ضربة حاسمة لهذه القوى وهذه الإمكانيات وكل الدول التى وقفت وراءها!



الرئيس مبارك والصحفية كارول ميرفى

مبارك والوشنطن بوست

أما على المستوى العالمى فقد كان الرئيس مبارك يردد دائما أن « الإرهاب ظاهرة عالمية »، لاتقتصر على مصر والدول العربية وحدها، ولم يكن هناك أحد يصدق هذه المقولة. وفى عام ١٩٩٣ وعلى وجه التحديد فى يوم الخميس ٤ مارس استقبل الرئيس مبارك الصحفية الأمريكية كارول ميرفى رئيس مكتب صحيفة واشنطن بوست فى الشرق الأوسط التى كانت تسعى لإجراء حديث مع الرئيس المصرى قبل سفره إلى الولايات المتحدة فى جولة تبدأ فى أبريل ١٩٩٣.

وكان تركيز الصحفية الأمريكية على ظاهرة الإرهاب فى مصر ولكن الرئيس مبارك رفض تماما حصر الإرهاب فى مصر، وأكد أنه ظاهرة عالمية موجودة بشكل أو آخر فى كل بلدان العالم. وكان من المفروض أن ينشر هذا الحديث مع وصول الرئيس مبارك إلى واشنطن فى أوائل أبريل. وخرجت كارول ميرفى مندهشة من إصرار الرئيس المصرى على أن الإرهاب ظاهرة عالمية، على أنها فى اليوم التالى « الجمعة » اتصلت فى لهفة بالسكرتير الصحفى للرئيس مبارك تستأذن فى نشر الحديث فورا وعدم الانتظار حتى أبريل، حيث أن التحقيقات أثبتت أن حادث الانفجار فى المركز التجارى العالمى هو حادث « إرهابى »

من الدرجة الأولى وأن مرتكبيه ينتمون جميعا إلى دول عربية مختلفة. واستأذنت الصحفية الأمريكية فى الحصول على تصريح أكبر من الرئيس عن كون الإرهاب أصبح ظاهرة دولية. وجاءها على الفور رد الرئيس أنه لا يزيد كلمة واحدة عما قاله من قبل من حيث «إن الإرهاب أصبح طاعونا ينتشر فى جميع أنحاء العالم وليس مصر وحدها أو بعض دول الشرق الأوسط، وإنه من الضرورى إيجاد صيغة للتعاون الدولى للقضاء على هذه الظاهرة».

وفى اليوم التالى نشرت الواشنطن بوست الحديث الساخن وأبرزت فى صفحتها الأولى تأكيد الرئيس المصرى أن الإرهاب ظاهرة دولية. وقد كان هذا التصريح هو أول تصريح من نوعه يؤكد الطبيعة الدولية للإرهاب. وكان تصريحا جريئا استشف مالم يكن أحد يعرفه أو يسمع عنه قبل ذلك اليوم.

ومع ذلك استغرق الأمر حوالى عامين ليتأكد الأمريكيون من هذه الحقيقة بعد الانفجار البشع فى أوكلاهوما سيتى، وبعد الهجوم الدنئ بغاز السيرين فى طوكيو.

وكان إنفجار أوكلاهو سيتى من تدبير جندى أمريكى سابق متخصص فى المفرقعات وينتمى إلى منظمة يمينية متطرفة تسمى «ميليشيا ميتشجان»، وأن الهجوم بالغاز فى اليابان قام به أعضاء جماعة روحية تسمى جماعة «الحقيقة السامية».

الجماعة اليابانية تتمسك بتعاليم ديانة الشنتو السائدة فى اليابان. والجندى الأمريكى السابق تيموثى ماكافى مسيحى الديانة. وأعتقد أن أحدا بعد ذلك لن يجد القدر الكافى من الصفاقة لكى يلصق الإرهاب بالإسلام، وحده فقط، فقد أصبحت الأمور واضحة للجميع وبات واضحا أن الإرهاب موجود وشائع بين معتنقى الأديان السماوية، وغير السماوية، بل بين الذين لا يعترفون بهذا أو ذاك.

وأعتقد أن الصراع الذى كان دائرا بيننا وبين وسائل الإعلام الأجنبية حول تسمية الإرهابيين التى كانوا يستخدمون بدلا منها «الإسلاميون» أصبحت محسومة بعد هذا التاريخ. وبدأت دول العالم كلها تتعامل مع حقيقة أن الإرهاب

ظاهرة عالمية وليست محلية تقتصر على المسلمين. ومن هنا بدأ التعاون الدولى للقضاء على هذه الظاهرة التى أصبحت تهدد الجميع، أما عندما كانت تهددنا وحدنا فقد تركونا وحدنا فى «ازدراء» وعلى أساس أننا ندفع ثمن تخلفنا وثمن معتقداتنا الخاطئة!

لم يكن حادث تفجير مبنى التجارة العالمى فى نيويورك أمرا مستغربا، فمن يحتضن حية رقطاء لابد أن يموت بلدغتها.

وكانت البداية بسعى الولايات المتحدة لإقامة علاقة مع رموز الجماعات الإرهابية، لأنها كانت مصابة بعقدة الشعور بالخطأ حين انحازت إلى الشاة ضد الخومينى فى إيران، وأيضا انحيازها لجعفر نميرى ضد الإسلاميين فى السودان، ومن ثم فقدت سيطرتها على هذه الفصائل عند وصولها إلى السلطة فى هذه الدول، لذلك حاولت أمريكا إقامة جسور بينها وبين الحركات الإرهابية فى كل الأقطار، بل إنها كثيرا ما تغاضت عن تجاوزات لهذه الجماعات، وقامت بإيواء قياداتها، تحت وهم أنهم إن وصلوا إلى الحكم فى أى من تلك الأقطار لا تفقد أمريكا سيطرتها عليها مثلما حدث فى حالتى إيران والسودان.

وفى هذا السياق، وبهذا الأسلوب الخطأ فى التعامل مع الجماعات الإرهابية، والذى كان الرئيس مبارك أول من حذر من خطورة عواقبه وأكد على هذا مرارا وتكرارا، قبلت أمريكا بوجود عمر عبدالرحمن مفتى الجماعات الإرهابية على أراضيها، والذى حصل على تأشيرة دخوله إلى أمريكا أثناء تواجده فى السودان!! التى وصل إليها بعد خروجه من مصر إلى السعودية. وكان هذا التصرف الأمريكى من باب الرغبة فى إقامة جسور مع الجماعات الإرهابية. وكانت النتيجة وقوع الانفجار الضخم فى مركز التجارة العالمى بنيويورك، وهو ما سبق وحذر منه الرئيس مبارك أكثر من مرة.

لذلك فإنه على الرغم من التصريحات التى أطلقتها قيادات الجماعات الإرهابية الموجودة خارج البلاد مثل بيان الجماعة الإسلامية الصادر بتاريخ ٢٥ مارس ١٩٩٩ بعنوان «فى عيد التضحية والفداء، عهد ووفاء».. والذى أكد على التزام التنظيم بكافة أجنحته بما فيها قيادات الخارج بوقف العمليات المسلحة، «إن

الجماعات بكل وحداتها فى الداخل والخارج، واستجابة لنداء الدكتور عمر عبدالرحمن ملتزمة بمبادرة وقف العمليات المسلحة التى أطلقها مشايخ الجماعة الأفاضل من سجن ليمان طرة، إن الجماعة تثق ثقة كاملة فى أنهم ما أطلقوا المبادرة إلا لمصلحة الإسلام والمسلمين»، وغيرها من سلسلة المبادرات السلمية التى دأب الإرهابيون على إطلاقها. كل هذا ما هو إلا مجرد فترة كمون فى ظل الضربات القاسية التى تلقوها خلال السنوات الماضية.

ومن ثم يجب ألا ننام أو نتوقف عن محاصرة هذه العناصر المتطرفة، التى لن تتوانى عن العودة مرة أخرى وفى صور مختلفة حينما تسنح لها أية فرصة. فنحن نحتاج إلى مواجهة مستديمة ويقظة متواصلة حتى لا تعود خفافيش الإرهاب للظهور مرة أخرى، ليس فقط داخليا على المستوى المحلى، ولكن أيضا، وأكثر خطورة، على المستوى العالمى فيما يدبر من مؤامرات ضدنا، وفيما يخرج بين الحين والحين من نظريات سياسية فاسدة توغل قلوب وعقول الجميع ضد الإسلام والمسلمين.

فبمجرد أن هزمنا الإرهاب وتخلصنا منه خلال هذه الحقبة من الزمن، وبمجرد أن أجهضنا المؤامرات التى تحاك ضدنا من الخارج - كما قرأنا فى أول هذا الكتاب - وبمجرد أن انهار الاتحاد السوفيتى الذى كان الغرب يوجه ضده كل أنشطته، بمجرد حدوث ذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن تخرج علينا نظريات سياسية تستبدل «الإسلام» بـ «الشيوعية» وتصور للعالم الغربى أن «الإسلام» هو العدو الجديد.

وفى هذا المضمون كان أخطر ماظهر فى السنوات الأخيرة هو نظرية «صدام الحضارات» التى صاغها ودعمها المفكر السياسى صمويل هنتنجتون والذى قام بعد انهيار الاتحاد السوفييتى كما لو كان «يتسوق» أعداءً جدداً يعملون على توحيد الغرب وشحذ امكانياته، فكان أن وقع اختياره على الإسلام كخطر جديد وحقيقى، يهدد الحضارة الغربية.

من هنا كان من الضرورى أن نفرد الصفحات التالية من هذا الكتاب لمناقشة هذه النظرية بالتفصيل نظرا لبالغ أهميتها وخطورتها بالنسبة للعالم الإسلامى بأجمعه.

صدام الحضارات
ومعركة «هرمجدون» !

في أثناء الحرب الباردة بين المعسكرين الشيوعى والغربى حاول كل من المعسكرين استغلال الإسلام كوسيلة لزيادة مناطق نفوذ كل فى مقابل الآخر. وبالفعل نجحا إلى حد كبير فى هذا التوظيف الخطير للدين من أجل مصالح سياسية بحتة. وفشل فى المقابل المجتمع الإسلامى بشكل عام والعربى بشكل خاص فى التصدى لهذه المخططات وسقط ضحية لها. وكانت النتيجة نمو القوى الأصولية المتطرفة خلال السبعينيات والثمانينيات. ثم انحسر هذا المد الإرهابى خلال التسعينيات من القرن الماضى، بعدما أدى الهدف المطلوب منه، وبعدما كاد يأتى على الأخضر واليابس في حياة المنطقة لتطوى هذه الصفحة المؤلمة إلى غير رجعة.

ومع نهاية التسعينيات وبداية القرن الواحد والعشرين تعرض الإسلام لمخطط آخر، لكن الأمة الإسلامية كانت ـ هذه المرة ـ أكثر وعيا، واستطاعت أن تنجح فى التصدى لهذا المخطط عن وعى ودراية، ولا نستطيع أن نغفل ـ أيضاً ـ أنها استفادت من تجارب الماضى القريب.

ر البداية كانت مع انهيار المعسكر الشيوعى بعد تفكك الاتحاد السوفيتى السابق. وكان على الغرب البحث عن عدو جديد يوجه له أسلحته. وقد اعتقد أنه وجد ضالته المنشودة فى الإسلام. وسعت بعض الدوائر الغربية لترسيخ هذا المفهوم المغلوط، والذى ينم عن سوء النوايا وعن عداء قديم ودفين، ولعل أبرز صورة للدعاية لهذا المخطط ومحاولة وضع أسس له وإلباسه ثوب المنطق العلمى والفلسفى، كانت من خلال نظرية صدام الحضارات للأمريكى صمويل هنتنجتون والذى حاول بشتى الطرق « تلفيق » نظريته المزعومة وإثبات صحتها.

وخروج هذه الأفكار العنصرية المسمومة من داخل المجتمع الأمريكى ليس أمرا مستغربا، خاصة لدى من هم على دراية بتاريخ الفكر الأمريكى وطبيعة هذا المجتمع، الذى حاول أن ينشىء لنفسه ديانة جديدة منذ حركات الهجرة الأولى المتدفقة من دول أوروبا إلى هذا العالم الجديد. وكان ولايزال التيار الدينى الغالب على عكس ما يتصور الكثيرون ـ هو الأصولية المسيحية. لدرجة أنهم وصفوا أنفسهم باسم «البيورتان» التى تعنى «المتطهرون»، أى الذين تطهروا من آثام بلاد المنشأ فى أوروبا. وسرعان ما امتزجت الأصولية المسيحية الأمريكية بأفكار الصهيونية العنصرية، ليصبح هناك مذهب جديد هو المسيحية الصهيونية التى تسيطر الآن على مقاليد كل شىء داخل المجتمع الأمريكى على كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ويقسم الشعب الأمريكى تاريخه إلى عدة مراحل، الأولى وهى مرحلة الخروج والهجرة أى الخروج من أرض الشر والشيطان أوروبا إلى أرض الموعد الجديدة «أمريكا». وذلك تشبها بخروج بنى إسرائيل من مصر بلاد الفرعون الوثنى ورمز قوى الشيطان إلى أرض الموعد المزعومة فى فلسطين!

بعد ذلك تأتى المرحلة التالية التى كانوا يعتبرون فيها أن الاتحاد السوفيتى والشيوعية هما الشيطان الأكبر الذى يجب عليهم محاربته. ولقد اعتمد معظم الرؤساء الأمريكيين فى سياستهم الخارجية على هذه العقيدة. ويمثل الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان محطة بارزة فى هذا الطريق. فقدكان دائم التأكيد على إيمانه بمعركة «هرمجدون» وهو جبل بفلسطين.

ويقال أن معركة قد قامت بين الخير «المسيح وأتباعه» وبين الشر ممثل فى الشيطان، وينتصر المسيح فى هذه المعركة، وبهذا تكون نهاية العالم..

وكان ريجان يعتقد أن معركة، هرمجدون ستكون نووية بين أمريكا التى تمثل «الخير» وبين الاتحاد السوفيتى السابق «الشيطان الأحمر» كما كانوا يطلقون عليه.

وفى إحدى حفلات العشاء قال ريجان في رده على سؤال عن مجىء

المسيح مرة ثانية:« إن كل شيء يأخذ مكانه ، لن يطول الوقت الآن، إن حزقيال «أحد أنبياء التوراة» يقول :« إن النار والحجارة المشتعلة سوف تمطر على أعداء شعب الله » إن هذا يجب أن يعنى أنهم سوف يدمرون بالسلاح النووى ، إنهم موجودون الآن، ولكنهم لم يكونوا موجودين فى الماضى ».

هكذا نرى إلى أى مدى أثرت معتقدات المسيحية الصهيونية المنتشرة فى الولايات المتحدة، وبالتحديد من خلال مذهب الكنيسة المعمدانية الأمريكية. ونرى نجد أن هذا المذهب صار يؤثر بشكل شديد وقوى فى الحياة السياسية الأمريكية. ولم يكن ريجان هو أول رئيس يعلن هذا على الملأ، بل سبقه كثيرون، وجاء بعده أيضا كثيرون، وكلهم يعتمدون فى دعايتهم الانتخابية على هذه المعتقدات، حتى أن كل رؤساء أمريكا خلال النصف الثانى من القرن العشرين كانوا من المنتمين للكنيسة المعمدانية، باستثناء جون كيندى الذى كان كاثوليكيا، وتم اغتياله فى ظروف لاتزال حتى الآن غامضة وموضع الكثير من التساؤلات!

أما آخر مراحل هذه المعتقدات الدينية الأصولية فى أمريكا، فإنها تتركز حول قضية واحدة، وهى الخروج بهذه الأفكار إلى العالم وعبور الأطلسى إلى قارات العالم القديم. ولعل هذا يتضح بشدة فى المعتقدات الأمريكية والدعاية الخاصة بطبيعة النظام العالمى الجديد ومحاولة فرض الثقافة الأمريكية على شتى بقاع الكرة الأرضية، فهم يرون أن هذا واجب دينى مقدس. بل إن السينما الأمريكية - وهى أحد رؤوس الحربة فى الماكينة الإعلامية الأمريكية، دائما ترتكز دائما على هذا المفهوم، وتحاول أن تروج له من خلال العديد من الأفلام من نوعية نهاية العالم مثل «أرماجدون» و«أبوكاليبس». و«حرب الاستقلال» وغيرها، وتركز فى تلك الأفلام بشكل محدد على أن أمريكا هى المنقذة للعالم من قوى الشر، وأنها هى الوحيدة التى تقاوم الشيطان الذى يحاول أن يسيطر على العالم كما لو كانوا قد أصبحوا شعب الله المختار الجديد!

ولكن سرعان ما انهار الاتحاد السوفيتى وانهارت معه الشيوعية دون



صمويل هنتنجتون

حدوث معركة هرمجدون المزعومة. وكان عليهم البحث عن شيطـ .خر وعدو جديد، حتى لو كان من صنع خيالهم، لكى لا تنهار أفكارهم المتطرفة التى تتخذ من وجود الآخر العدو سببا وشرعية لوجودها.

فكان أن وقع اختيارهم على الإسلام ليكون العدو الجديد ، رغم أنهم منذ سنوات قليلة كانوا يستغلون الإسلام فى محاربة الشيوعية(!!). وهذا يوضح مدى الإسفاف والرخص والنفاق!

ومن الوهلة الأولى نجد أن صمويل هنتنجتون يتحدث عن إسلام غير الإسلام السمح الذى نعرفه. ويصور العرب والمسلمين بصورة مشوهة، بل غير حقيقية، وبعيدة تماما عن الواقع، فهو ينظر إلى العرب والحضارة الإسلامية العربية بعيون أصولية أمريكية، ليست غير محايدة فقط، بل مغرضة أيضا. فهو لايدرك أن العالم الإسلامى ليس مجرد كتلة صماء، بل هو عالم ثرى بالمصادر والمنابع الحضارية والفكرية المتنوعة .

فعلى سبيل المثال يختلف سلوك وثقافة المسلمين فى البلاد العربية عن سلوك وثقافة المسلمين الموجودين فى إيران أو تركيا أو باكستان، وهم

يختلفون بدورهم عن المسلمين الموجودين فى أفريقيا أو جنوب شرق آسيا والهند، لأن الحضارة الإسلامية أشمل وأكثر اتساعا من أن تختزل بهذا الشكل الساذج والمغرض. بل إن عصر النهضة الأوروبية ما كان ليخرج إلى الوجود ويرى النور، مالم تكن هناك حضارة عربية إسلامية أخذ الغرب ينهل منها لكى يبدد ظلامه بنور الحضارة الإسلامية.

وإذا أخذنا الحضارة الإسلامية فى مصر على سبيل المثال نجدها تختلف عن تلك الموجودة فى الجزيرة العربية، لأن جذورها تمتد إلى تاريخ سحيق قوامه سبعة آلاف سنة، فهى مزيج من الحضارة الفرعونية والقبطية واليونانية. إذ أن الإسلام قد استطاع استيعاب كل هذه الحضارات، بل ويهضمها ليصبح لدينا الشكل الحضارى الحالى، ونفس الشىء بالنسبة للعراق التى تمتد جذورها إلى الحضارة البابلية، وفى إيران نجد أن الإسلام استطاع أن يهضم ويتمثل الحضارة الفارسية.

وبشكل عام نجد أن الحضارة العربية ليست إسلامية فقط، بل دخل فى مكوناتها روافد أخرى مسيحية عربية وغير إسلامية.

ومن ثم وبافتراض صحة مايزعمه صمويل هنتنجتون من أن هناك صداما حضاريا بين الحضارة الغربية المسيحية من جانب، والحضارة الإسلامية والعربية من جانب آخر، فإن هذا لاينطبق على المنطقة العربية على الإطلاق، لأن المسيحى الشرقى بشكل عام والعربى بشكل خاص، ليس بمعزل عن النسيج الحضارى الإسلامى، فبداخل المكون الحضارى للعربى المسيحى مساحة كبيرة من الحضارة الإسلامية، والعكس أيضا صحيح بالنسبة للمكون الحضارى للعربى المسلم.

وفى هذه الحالة يستحيل أن يتصادم الإنسان مع مكوناته وجذوره الحضارية، وإلا يعتبر هذا ضربا من ضروب الجنون، وتجاهلا غير منطقى لأبسط قواعد علم الاجتماع الإنسانى ولثوابت التاريخ، ومبادئ السلوك الاجتماعى والإنسانى السوية.

لذلك: فإن الزعم بأن هناك صداما حضاريا، وما ينادى به هنتنجتون ما هو إلا تفسير متطرف وعنصرى للتباين الحضارى؛ الذى من المفترض أن يكون سببا للثراء وليس سببا للصراع والدمار.

وقد قام هنتنجتون قبل طرح نظريته الجديدة بمحاولة لهدم كل الأطروحات الفكرية حول مستقبل العالم خلال الفترة القادمة. وذلك حتى يتسنى له أن يكون صاحب الامتياز والمالك الوحيد للحقيقة إذ يقول: « لم يتردد المفكرون فى طرح الرؤى الخاصة بهم مع نهاية عصر عودة المنافسة التقليدية بين الأمم، وتناقص عدد الأمم حول أقطاب الصراع القبلية والعالمية، كل هذه الرؤى تطرح وجهات نظر للواقع الجديد ».

ثم يجزم وبكل حسم أن كل النظريات الحالية تفتقد إلى الحسم أو المركزية الحقيقية، وليست لديها وجهة نظر تحدد ما سوف تكون عليه السياسة العالمية في السنوات القادمة. ومن ثم فإن أسباب الصراع فى هذا العالم الجديد لن تكون أيديولوجية أو اقتصادية فى المقام الأول، لكن القاسم المشترك الأعظم بين الجنس البشرى وأسباب الصراع ستكون ثقافية وحضارية. وسيكون هناك صراع بين الدول والمجموعات الحضارية ـ كما يزعم ـ فتصادم الحضارات سوف يسيطر على السياسة العالمية، من خلال اختلاف الأفكار. وهذا الصدام سيكون المرحلة الأخيرة فى تحول الصراع فى العالم الجديد، ولمدة قرن ونصف القرن بعد ظهور النظام العالمى الجديد.

وفى محاولة للبحث عن جذور تاريخية لنظريته، قام هنتنجتون بالعودة إلى الوراء لكى يسخر الأحداث التاريخية لخدمة أفكاره، فهو يقسم الصراع فى العالم الغربى وبالتحديد فى أوروبا إلي عدة مراحل، الأولى كانت بين الأمراء والامبراطوريات فى ظل وجود النظام الملكى المطلق، ومحاولات هذه الممالك والامبراطويات المستمرة لتوسيع أنظمتهم البيروقراطية وتعظيم قوتهم العسكرية والاقتصادية، وفوق كل هذا التوسع فى المساحات التى يحكمونها، وكان هذا الصراع بداية لظهور الدولة الحديثة.

البداية مع الثورة الفرنسية !

ويبدأ عصر الدول الحديثة ـ على حسب ما يقوله هنتنجتون ـ مع قيام الثورة الفرنسية، فهى البداية الحقيقية لوجود نوع جديد من الصراع بين الشعوب من جانب، والأمراء والأباطرة على جانب آخر وذلك عام ١٧٩٣م، وكما يصفها رونالد بالمر «انتهت حرب الملوك وبدأت حرب الشعوب». واستمر هذا النموذج من نماذج الصراع منذ القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين لينتفى مع نهاية الحرب العالمية الأولى عندما جاءت الثورة البلشفية فى روسيا وما خلفته من رد فعل ضدها، لينتقل الصراع بين الشعوب إلى صراع أيديولوجى. وكانت بداية هذا الصراع بين الشيوعية والفاشية والنازية من جانب، والديمقراطية الليبرالية من جانب آخر. وكان التجسيد القوى والشديد الوضوح لهذه الصراعات الأخيرة أثناء الحرب الباردة بين القوتين العظميين، الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية، حيث حددت كل منهما هويتها وفقا لأيديولوجياتها ومعتقداتها الفكرية والسياسية.

وكانت الصراعات بين الأمراء والشعوب والأيديولوجيات ـ فى المقام الأول ـ صراعا فى إطار الحضارة الغربية أو مايمكن أن يطلق عليه «الحرب الأهلية الغربية» كما يصفها ويليام لند.

لكن مع نهاية الحرب الباردة أصبح هناك صراع من نوع جديد. لقد خرجت السياسة الدولية من مرحلتها الغربية. وأصبح ركن الصراع ـ كما يحاول أن يثبت هنتنجتون ـ يتمثل فى التفاعل بين الغرب وحضارته وبين الحضارات غير الغربية. وفى ظل هذا الوضع لم تعد الشعوب والحكومات فى الحضارات غير الغربية هى عناصر التاريخ الذى تهدف إليه المستعمرات التى كان يحتلها الغرب، لكنهم أصبحوا يرتبطون بالغرب «أى الحضارات غير الغربية» والغرب هو الذى يحرك ويشكل التاريخ.

بعد ذلك يعرج هنتنجتون بأفكاره وبشكل تدريجى نحو ترسيخ نظريته فى تقسيم حضارات الشعوب بشكل عنصرى ولم يستطع إخفاء عنصريته رغم

ارتدائه لقناع المفكر والفيلسوف. وذلك تحت وهم السيطرة والتفوق للحضارة الغربية التى يحاول أن يضعها فى إطار مستقل ويصنع لها هالة من التقديس فى مقابل غيرها من الحضارات الأخرى. فهو يرى أنه أثناء الحرب الباردة كان العالم مقسما إلى عالم أول وثان وثالث، لكن هذه التقسيمات لم تعد ذات صلة بالموضوع، فهى اليوم تشبه إلى درجة بعيدة مجرد «مجموعة الدول» ليس فقط فى سياستهم أو أنظمتهم الاقتصادية أو فى المستوى والتنمية الاقتصادية، ولكن أيضا فى ثقافتهم وحضارتهم.

ويطرح بعد ذلك سؤالا عن معنى الحضارة ثم يجيب بقوله:

إنها الكينونة أو الوجود الثقافى. فنجد أن القرى ، والأقاليم، والمجموعات العرقية، والقوميات، والمجموعات الدينية تملك التميز الثقافى على المستويات المختلفة من التباين الثقافى فى نفس الوقت لأنه ـ على سبيل المثال ـ ثقافة القرية في الجنوب الإيطالى ربما تختلف عنها فى القرى الشمالية الإيطالية، لكن كليهما يشتركان فى الثقافة الإيطالية العامة التى تميزهم عن القرى الألمانية. بل إن الاتحاد الأوروبى فى واقع الأمر سوف يشترك فى الطبيعة الثقافية التى تميزه عن المجتمعات العربية أو الصين الشيوعية وعلى كل حال، فإن العرب والصينيين والغربيين ليسوا جزءا من أية كينونة ثقافية داخلية لأنهم مهد الحضارات.

ويلاحظ أن هنتنجتون يحاول أن يضع جذور الحضارة الغربية على قدم المساواة مع حضارة الشرق بشكل عام، سواء فى المنطقة العربية أو الصين، رغم أن ثوابت التاريخ تؤكد بما لايدع مجالا للشك أن الحضارة الأوروبية الحديثة بنيت على ما تم نقله من حضارات الشرق، خاصة الحضارة العربية الإسلامية، وفى الوقت الذى كانت فيه الحضارة العربية فى أوج مجدها وأزهى عصورها؛ كانت الحياة الغجرية والبدائية والصراع القبلى شديد التخلف يسيطر على كل أوروبا.

ثم يعود هنتنجتون مرة أخرى لاستكمال تعريفه للحضارة بأنها إلى حد ما

أعلى مستوى ثقافى لمجموعة من البشر، والاتساع العريض للهوية الثقافية للشعوب يكون محدودا بواسطة عناصر موضوعية شائعة، مثل : اللغة والتاريخ والدين والعادات والأعراف، وأيضا بواسطة تحديد الهوية الشخصية الذاتية للشعوب، فهناك مستويات من الهوية للبشر، فالمقيم فى روما ربما يصنف نفسه بدرجات مختلفة من القوة، فهو رومانى ، إيطالى، كاثوليكى، مسيحى، أوروبى، غربى، أى أن الحضارة التى ينتمى إليها متسعة فى تحديد الهوية. ومن ثم يجد الشخص نفسه متعدد الهوية. ونتيجة لذلك تتغير البنية والحدود الحضارية، لأن الحضارة الواحدة قد تضم مجموعة كبيرة من الشعوب كما هى الحال فى الصين، أو قد تضم أيضا عددا قليلا من البشر كما هى الحال مع سكان جزر البحر الكاريبى من الناطقين باللغة الإنجليزية، كما يمكن أن تشمل الحضارة الواحدة عددا من الشعوب مثل الحضارة الغربية، حضارة أمريكا اللاتينية والحضارة العربية. وفى بعض الأحيان تضم الحضارة الواحدة شعبا واحدا فقط مثل حضارة اليابان.

والحضارة الغربية تشتمل على قسمين مختلفين هما أوروبا وأمريكا الشمالية وبعض الدول الأخرى التي استوطنها الأوروبيون مثل استراليا ونيوزيلانده. وقد تغيرت العلاقة بين المكونين الرئيسيين للغرب، مع مرور الزمن. والحضارة الإسلامية بها العديد من الحضارات الثانوية مثل : العرب ، الأتراك، أفريقيا، وعلى الرغم من ذلك فإن الحضارات تعنى الوجود. ومع أن الخطوط الفاصلة الحادة بين الحضارات نادرة الوجود، إلا أنها حقيقة، فالحضارات تتفاعل علوا وهبوطا، تزدهر وتأفل، تنقسم وتندمج، وكما يعرف دارسو التاريخ فإن الحضارات تختفى وتدفن فى رمال الزمن!

لقد ذكر أرنولد توينبى« * » فى كتابه« دراسة للتاريخ » أن هناك إحدى وعشرين حضارة عظمى قامت على مدار تاريخ البشرية لم يصمد منها سوى ست حضارات فقط، وهى التى استطاعت البقاء فى العالم المعاصر.

« * » أرنولد توينبى - دراسة للتاريخ « ١٢ مجلدا» - مطبعة جامعة أكسفورد « لندن » ١٩٣٤ .

ومن ثم سوف يزداد التصنيف الحضارى أهمية فى المستقبل. وعلى حد زعم هنتنجتون فإن العالم سوف يتشكل من مجموعة كبيرة من خلال التفاعل بين سبع أو ثمانى حضارات هامة وهى: الحضارة الغربية ، والكونفوشيوسية «الصينية»، واليابانية، و الإسلامية، والهندية، والسلافية الأرثوذكسية، وأمريكا اللاتينية، وربما الحضارة الأفريقية، وسوف تحدث أهم الصراعات المستقبلية على طول خطوط الاختلاف الحضارى، التي تفصل بين هذه الحضارات الواحدة عن الأخرى.

ويستطرد هنتنجتون بعد ذلك قائلا أن الحضارتين الإسلامية والكونفوشيوسية هما الحضارتان اللتان لا يمكنهما أن تندمجا فى الحضارة الغربية، وتسعيان للتحديث دون التغريب « أى الاصطباغ بالصبغة الغربية »، ومن ثم فإن الصراع بينهما وبين الحضارة الغربية هو أمر حتمى!

المثير للدهشة فى تصنيف وتحليل هنتنجتون هو سكوته عن الديانة اليهودية، رغم تأكيده على أن الديانة عنصر أساسى للتمييز بين الحضارات، ولم يشر إلى الصراع المحتمل فى ضوء نظريته بين الإسلام واليهودية وبين اليهودية والمسيحية. والأكثر إثارة ومدعاة للتساؤل إنه لم يستخدم الديانة كمعيار للتصنيف إلا عندما جاء ذكر الحضارة الإسلامية، فالحضارة الغربية هى نسبة للغرب وهى مجال جغرافى، والكونفوشيوسية نسبة إلى فيلسوف الصين «كونفوشيوس» الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد، واليابانية نسبة إلى بلاد اليابان ،والهندية إلى بلاد الهند، والسلافية الأرثوذكسية نسبة إلى عرق ودين، والحضارة الأفريقية نسبة إلى القارة الأفريقية وحضارة أمريكا اللاتينية نسبة إلى قارة أمريكا اللاتينية.

الأديان والحضارة

ومن ثم فإن قيام هنتنجتون باختيار معايير متعددة للتمييز بين الحضارات يعتبر إخلالا بالمنهجية العلمية التى يجب أن تتبع فى مثل هذه الموضوعات، حيث يجب تحديد المعايير والمفاهيم، ومن ثم كان على هنتنجتون

استخدام معيار ثابت عند تصنيف الحضارات. وإذا استخدمنا الدين كمعيار للتصنيف بين الحضارات سيكون لدينا الحضارات التالية: الحضارة المسيحية والحضارة الإسلامية، والحضارة البوذية والحضارة اليهودية.

نعود مرة أخرى لمايقوله هنتنجتون فهو يضع خمسة أسباب ستكون وراء هذا الصراع الحضارى، أو الحرب الحضارية المزعومة:

أولا: الاختلاف بين الحضارات ليس فقط حقيقيا، بل أساسيا أيضا. وهذا الاختلاف يكون متمثلا فى التاريخ، واللغة، والثقافة، والتقاليد. والأكثر أهمية هو الاختلاف الدينى، لأن الشعوب فى الحضارات المختلفة لديها وجهات نظر متباينة بالنسبة للعلاقة بين الإنسان والله، والفرد والجماعة، والمواطن والدولة، والآباء والأبناء، والأزواج والزوجات، بالإضافة إلى الاختلاف فى الرؤية فيما يتعلق بأهمية الحق، والمسئولية ، والحرية، والسلطة، والمساواة، والكهنوت.

هذه الاختلافات هى نتاج قرون متعددة ولن تختفى سريعا، فهى ذات أصول عميقة؛ أكثر من الاختلافات بين الأيديولوجيات والنظم السياسية. وإن كان هذا لايعنى العنف بالضرورة أيضا. ولكن على مدار القرون السابقة، وبسبب هذه الاختلافات تولدت الصراعات والحروب وأعمال العنف، وطال أمد بعضها.

ثانيا: لقد أصبح العالم صغيرا، مما أدى إلى زيادة التفاعل بين الشعوب والحضارات والحضارات المختلفة. وهذا التفاعل جعل الشعور والوعى بهذه الاختلافات بين الحضارات - وأيضا بين الشعوب داخل تلك الحضارات - يتزايد بشدة. وعلى سبيل المثال نجد أن المهاجرين من شمال أفريقيا إلى فرنسا قد ولدوا وهم يكنون العداء للفرنسيين، بينما نجد فى المقابل أن الأوروبيين الكاثوليك «الطيبين» تقبلوا هذه الهجرة.

ويرى هنتنجتون أن الأمريكيين يتفاعلون بصورة سلبية شديدة جدا مع

ستثمارات اليابانية، بينما لا يحدث نفس الشيء مع الاستثمارات الكبيرة القادمة من كندا والدول الأوروبية، وهذا يرجع إلى الاختلاف الحضارى. وكما يؤكد دونالد هورد ويتر فإن التفاعل بين الشعوب فى الحضارات المختلفة يؤدى إلى تهذيب الحضارة، ووعي هذه الشعوب وإنعاش الشعور بالاختلاف بينهم. ومن ثم تأكيد الحقد أو التفكير فى العودة إلى الوراء فى التاريخ.

ثالثا: نجد أن عملية التحديث الاقتصادى والتغييرات الاجتماعية التى تحدث في أنحاء العالم، قد أدت إلى فصل الشعوب عن البقاء المستمر فى الهوية المحلية، كما أضعفت قومية الدولة بصفته مصدرا للهوية، مما أدى إلى حدوث فجوة فى الانتماء لهوية، لتقوم الأديان فى كثير من أنحاء العالم بملء هذه الفجوة. وذلك غالبا فى شكل حركات دينية أطلق عليها اسم «الأصولية»، وقد ظهرت هذه الحركات فى المسيحية الغربية واليهودية والبوذية والهندوسية وأيضا فى الإسلام.

وفى كثير من الديانات والدول نجد أن العناصر النشطة بين الأصوليين، عددا لا بأس به من الشباب الصغير فى مراحل التعليم الجامعى، أو الطبقة الفنية المتوسطة، وأيضا بين الحرفيين وأصحاب المهن. وقد علق على هذا جورج ويجل فى كتابه «عدم دنيوية العالم» بقوله :« إنها واحدة من الصفات الاجتماعية الغالبة فى الحياة فى نهاية القرن العشرين».

أو كما يقول جيلز كيبل: «فإن إحياء الدين وانبعاثه قدم قاعدة للهوية وتعهدات تفوق الحدود القومية وتوحيد الحضارات».

وهنا نجد أن »هنتنجتون» يحاول بشتى الطرق أن يختزل كل مقومات الحضارة والهوية لشعوب العالم فى الانتماء الديني، فهو تناسى عن عمد أن هناك فرقا شاسعا بين الدين والمواطنة. وهنا مكمن الخطورة لمثل هذه الأفكار، فهى محاولة لتزييف الواقع، وخلق أسباب مفتعلة للصراع الدموى والفتن الدينية بين الشعوب.

ولعل هذا يجعلنا نرصد الصراعات الدينية التى تجرى فى بعض دول العالم

الثالث، نجدها فى أندونيسيا والفلبين والهند وبعض الدول الأفريقية مثل نيجيريا، حيث تقف وراءها دائما أصابع خارجية تزيد من إشعالها وإذكائها كلما خمدت. وهذا ما حاولته بعض القوى الخارجية مع مصر، لكنها فشلت، ولن تنجح مادام هناك وعى وفطنة. كما أن الهوية الوطنية المصرية أقوى بكثير جدا من أن تترك فجوة أو ثغرة تتسلل منها هذه الأيدى الخارجية، لأن تاريخنا يؤكد خبراتنا الثرية فى هذا المجال، وإلى الحد الذى أصبحنا معه محصنين ضد هذا النوع من المؤامرات.

رابعا : يقول هنتنجتون : لقد تم تعزيز نمو الوعى الحضارى من خلال الدور الغربى المتعاظم، إذ يقف العالم الغربى على قمة جبل القوة فى العالم. وفى نفس الوقت بدأت حركة أخرى ربما جاءت نتيجة لهذا الدور الغربى، وتهدف هذه الحركة بشكل متزايد نحو العودة إلى الجذور الحضارية والتاريخية، مثل الميل نحو الحضارة الآسيوية، كما هى الحال فى اليابان، وأيضا نجد أن الهند خاصة بعد نهاية عصر نهرو تلجأ إلى عمق التاريخ والحضارة الهندية، وفى الشرق الأوسط نجد هذا الميل نحو الأصولية والماضى التاريخى خاصة بعد فشل دول المنطقة فى تطبيق المبادئ الاشتراكية الغربية، وأيضا فشل الفكر القومى العربى، ومن ثم بدأ ظهور وانتعاش التيارات الأصولية، وأيضا فى روسيا بدأت العودة نحو القومية الروسية مع انتهاء الصراع مع الغرب وظهور بوريس يلتسين.

العالم غربى .. وغير غربى !

لذلك نجد أن العالم الغربى وهو فى قمة قوته يتحدى العالم غير الغربى. وهذه القوة المسيطرة «القوة الغربية» لديها الرغبة والإرادة والمصادر لتشكيل اتجاهات العالم غير الغربى. وفى الماضي كانت النخبة فى المجتمعات غير الغربية مشبعة بالاتجاهات والقيم الغربية، ذلك أنها تلقت تعليمها فى جامعات أكسفورد والسوربون، وساند هيرست بينما كانت

العامة بين هذه الشعوب متشربة بعمق ثقافاتها المحلية.

وقد اختلف الوضع الآن؛ ما لم يكن انقلب، فهناك اندماج بين الحضارة الغربية وهذه الشعوب المحلية غير الغربية فى العديد من الدول، وهناك العادات الأمريكية، الثقافة، وأصبحت الموضة والعادات الغربية الآن أكثر شعبية بين الغالبية العظمى من الشعوب.

خامسا: نجد أن الخصائص والاختلافات الثقافية يصعب التحول عنها على عكس الأيديولوجيات السياسية، فعلى سبيل المثال وجدنا الاتحاد السوفيتى السابق قد تحول من الشيوعية إلى الديمقراطية، والأغنياء يمكن أن يصيروا فقراء، والفقراء يصبحون أغنياء، لكن لايمكن أن تصبح روسيا استونيا، أو أن تتحول أذربيجان إلى أرمينيا.

لقد كان السؤال المطروح خلال الصراع الفكرى والاجتماعى هو : فى أى جانب أنت الآن؟

وبالفعل استطاعت الشعوب اختيار جانب وتنحية الجانب الآخر، لكن فى ظل صراع الحضارات أصبح السؤال : من أنت؟

ومن ثم؛ فإن الصفات والاختلافات الحضارية لايمكن تغييرها. وكما نعلم فإنه فى ظل هذا الصراع، الدائرة فى البوسنة أو القوقاز أو السودان، تكون الإجابة الخاطئة عن هذا السؤال «من أنت؟» هى «رصاصة فى الرأس»، لأن الشخص قد يكون نصف فرنسى ونصف عربى، ويكون فى نفس الوقت مواطنا فى كلا البلدين، إلا أن الأكثر صعوبة أن تكون نصف كاثوليكى ونصف مسلم.

ولعل هنتنجتون بهذا الكلام لايزال يمارس لعبته فى قلب الأمور باستخدام مغالطات ساذجة، لأن الانتماء الدينى قد لايقبل القسمة على اثنين، لكنه فى ذات الوقت لايعنى بأية حال من الأحوال رفض وجود الآخر أو عدم التفاعل معه، بل إنه على مدار التاريخ، لم يكن الاختلاف الدينى سببا فى انهيار العلاقات الحضارية والإنسانية بين الشعوب، فالمواطنة شىء

والانتماء الدينى شيء آخر..

فهل المسيحى الأفريقى أو الآسيوى له نفس الهوية الحضارية والثقافية للمسيحى الأوروبى؟

بالطبع لا.

بل إن الهوية الحضارية والثقافية للمسلم المصرى تختلف عن الهوية الحضارية والثقافية للمسلم الهندى أو الباكستانى، لأن القومية والجذور التاريخية أشمل وأوسع ، فهى دائرة قد تضم العديد من الديانات المختلفة، لكن السمات الأساسية المشتركة للشعوب داخل الحضارة الواحدة تبقى ثابتة راسخة. ولعل أبلغ مثال على ذلك مصر، فلا يستطيع أحد أن يفرق من خلال التصرفات الحياتية اليومية بين المصرى المسلم والمصرى المسيحى، إلا عندما يذهب المسلم إلي المسجد والمسيحى إلى الكنيسة.

نعود مرة أخرى لما يقوله هنتنجتون، إذ يرصد حجم التعاملات الاقتصادية رابطا إياها بالانتماء الحضارى. إذ يجد أن التعاملات التجارية الإقليمية قد تزايدت على حساب التجارة الكلية. فمثلا فى أوروبا ما بين عامى ١٩٨٠ و١٩٨٩ تزايدت نسبة التجارة بين دول الإقليم الأوروبى من ٥١٪ إلى ٥٩٪، بينما وصلت بين دول شرق آسيا من ٣٣٪ إلى ٣٧٪، وفى شمال أمريكا من ٣٢٪ إلى ٣٦٪. وترجع أهمية التكتلات الاقتصادية الإقليمية إلى احتمال الاستمرار فى زيادتها مستقبلا. ومن ثم سوف يدعم هذا النجاح الاقتصادى الإقليمى الوعى الحضارى. وعلى جانب آخر، فإن هذا التبادل الاقتصادى الإقليمى ربما ينجح فقط عندما تزداد ضرورة ذلك فى الحضارة السائدة بين دول الإقليم.

ونجد أن المجموعة الأوروبية تستند على التأسيس المشترك للثقافة الأوروبية والمسيحية الغربية، وفى نفس السياق - أيضا - نجد أن نجاح المنطقة التجارية الحرة فى أمريكا الشمالية يعتمد على التقارب بين حضارات المكسيك وكندا وأمريكا. بينما نجد أن وضع اليابان على العكس من هذا، فهى تواجه عقبات فى خلق كيان اقتصادى مماثل بين

دول شرق آسيا، لأن مجتمع وحضارة اليابان متفرد بذاته. ومع ذلك فإن التجارة القوية والاستثمارات المتصلة باليابان ربما تنمو مع دول آسيوية أخرى فى شرق آسيا. لذلك فإن الاختلاف الثقافى لليابان مع دول شرق آسيا قد يعوق تقدم الاقتصاد الإقليمى المتكامل ليصبح مماثلا لما هو موجود فى أوروبا أو أمريكا الشمالية.

على جانب آخر نجد أن الثقافة الشائعة تسهل من عملية تسريع الامتداد للعلاقات الاقتصادية بين الصين الشعبية وهونج كونج، وتايوان، وسنغافورة والصين، والتجمعات في الدول الآسيوية الأخرى، ولقد تزايدت قوة الثقافة العامة مع نهاية الحرب الباردة، وتم التقارب بين الصين وتايوان.

وإذا كانت الثقافة العامة هى شرط التكامل الاقتصادى، فمن المحتمل مستقبلا أن تتركز الكتلة الرئيسية لاقتصاد شرق آسيا حول الصين. فهى كتلة حقيقية أصبحت متواجدة بالفعل، على الرغم من السيطرة الحالية لليابان على الإقليم، لأن القاعدة الاقتصادية الصينية داخل آسيا بدأت تبزغ بسرعة كمركز جديد للصناعة والتبادل الفكرى والمالى.

وهذه المنطقة الاستراتيجية بها إمكانيات حقيقية، فلديها التكنولوجيا والقدرة على التصنيع، كما فى «تايوان» وتسويق وخدمات ذكية كما هى الحال فى «هونج كونج» وشبكة اتصالات رائعة كما فى «سنغافورة»، وكم ضخم من التمويل الرأسمالى فى الدول الثلاث، ومساحات شاسعة من الأراضى الغنية بالثروات والمصادر الطبيعية والعمالة كما فى الصين. وتقوم هذه الشبكة المؤثرة من شونج هو إلى سنغافورة ومن كوالالامبور إلى مانيلا غالبا على الامتداد التقليدي للعشائر وتمثل العمود الفقرى لاقتصاد شرق آسيا.

الدين والثقافة والاقتصاد!

على جانب آخر نجد الدين والثقافة أيضا يشكلان القاعدة لمنظمات التعاون الاقتصادى التى تجمع معا عشرا من الدول الإسلامية غير العربية،

مثل إيران وباكستان وتركيا وأذربيجان وكازاخستان، وقيرغستان وتركستان وطاجاكستان وأوزبكستان وأفغانستان. ولعل القوة الدافعة لإحياء وامتداد هذه المنظمة التى تم تأسيسها فى الستينيات بواسطة تركيا وباكستان وإيران، ترجع إلى أن قادة العديد من هذه الدول أدركوا عدم وجود فرصة لديهم للانضمام إلى المجتمع الأوروبى.

وتجاهل هنتنجتون مرة أخرى أن السبب الرئيسى وراء هذا التجمع الاقتصادى لم يكن هو الانتماء الدينى، فالدين ليس سلعة أو منتجا يدير المصانع. ولكن السبب الرئيسى هو المصالح الاقتصادية المشتركة والجوار الجغرافى والجذور الثقافية والتاريخية المشتركة بين معظم هذه الدول، وإلا فلماذا لم تنضم إليها دول إسلامية غير عربية أخرى؟!

لكنها المحاولة الدائمة للى عنق الحقائق والبحث عن أسباب ودوافع دينية لتفسير أى تصرف سياسى أو أية علاقة اقتصادية بين دولتين.

وهذا ما يتكرر كثيرا فى كتاب هنتنجتون «صدام الحضارات» وهى المصيدة التى يحاول أن يوقع بها كل علاقة سوية ومشروعة بين دول العالم الثالث، مادامت هذه العلاقات ستؤدى إلى تقدمها وخلعها لثوب التبعية للاقتصاد والسياسة الغربيين. حتى لايتحول الفناء الخلفى للبيت الغربى الرأسمالى إلى صرح اقتصادى مستقل. ومن ثم يصاب اقتصاد الغرب بالشلل، حيث يعتمد فى تسويق منتجاته على أسواق العالم الثالث.

وفى نفس السياق يتعرض هنتنجتون لسوق أمريكا الوسطى «الكاريكوم» بقوله : إن الجهود المبذولة لبناء كيان اقتصادى لوسط أمريكا على الساحل الكاريبي - متخطية التقسيم الأنجلولاتينى - يأتى أيضا فى إطار إدراك هذه الدول لعدم قدرتها على الاندماج فى التجمعات الاقتصادية لدول الشمال.

وسوف يتم تحديد هوية الشعوب على أساس دياناتهم وأعراقهم. فمن المحتمل أن يروا كلمة «نحن» فى مقابل كلمة «هم»، وهي علاقة بين الشعوب وشعوب أخرى ذوى ديانات وعرقيات مختلفة. ولقد أدى انتهاء التصنيف الأيديولوجى للدول فى شرق أوروبا والاتحاد السوفيتى السابق إلى

ظهور النعرة العرقية التقليدية والأحقاد التاريخية.

وأدى الاختلاف فى الدين والثقافة إلى خلق اختلافات فى القضايا السياسية، تبدأ بحقوق الإنسان مرورا بحق الهجرة، والتجارة، والتبادل الفكرى ونهاية بالبيئة. وكذلك أدى التقارب الجغرافى إلى ظهور الصراعات الإقليمية بداية من البوسنة ونهاية «بمنداناو»! وهى إحدى جزر الفلبين.

الحدود الدامية
للإسلام والتعاون
الإسلامى
الكونفوشيوسى!

بنظرة عنصرية خالصة يتحدث هنتنجتون بعد ذلك عن مزاعم حدود الإسلام الدامية إذ يقول: «إن الصراعات الطائفية وحروب خط الصدع – ويعنى بها الحروب التى تقع على الخطوط الفاصلة بين الشعوب التى تنتمى لحضارات مختلفة، وهى مادة التاريخ أثناء الحرب الباردة – ولقد حدث حوالى ٣٢ صراعا إثنيا، تتضمن حروب خط الصدع بين العرب والإسرائيليين، الهنود وباكستان، السودانيين المسيحيين والسودانيين المسلمين، السيرلانكيين البوذيين والسيرلانكيين التاميل، واللبنانيين الشيعة واللبنانيين الموارنة لقد شكلت حروب الهوية نصف الحروب الأهلية خلال الأربعينيات والخمسينيات..

ويلاحظ هنا أيضا استمرار هنتنجتون فى مغالطاته، إذ يصنف الصراع العربى الإسرائيلى على أساس أنه صراع اثنى دينى وأنه حرب أهلية، متناسيا عن عمد أن هذا الصراع إنما جاء دفاعا عن أرض اغتصبت. ولم يكن للدين أو العرق دور فيه، ولم تكن حربا أهلية.

وكان العرب هم الوحيدون الذين يضمون اليهود بين مجتمعاتهم فى سلام ودون تفرقة. وكان الأوروبيون هم الذين طردوا اليهود من ديارهم، وأقاموا لهم وطنا فى فلسطين على حساب العرب!

ثم يستطرد هنتنجتون فى مزاعمه قائلا:« إن التوتر والعداء والصراعات العنيفة منتشرة بين المسلمين وغير المسلمين. فنجدهم فى البوسنة قد دخلوا فى قتال مدمر دموى مع الصرب الأرثوذكس، وفى قتال آخر مع الكروات الكاثوليك. وفى كوسوفو عانى المسلمون الألبان من حكم الصرب وحافظوا على حكومتهم السرية، وهناك توقعات عالية جدا لاندلاع العنف بين الجماعتين . ونجد الحكومة الألبانية المسلمة ـ أيضا ـ فى خلاف دائم مع الحكومة اليونانية

الأرثوذكسية حول الأقليات فى بلد كل منهما. وفى نفس السياق نجد أنه على مدار التاريخ يمسك الأتراك المسلمون والأرثوذكس اليونانيون كل منهما بعنق الآخر، فأصبحوا دولا متجاورة فى حالة عداء دائم. وفى شمال القوقاز نجد أن الشيشان والأنجوش والمسلمين الآخرين قاتلوا لأكثر من مائتى سنة من أجل الاستقلال عن روسيا. وهناك صراع دموى بدأ بين الروس والشيشان عام ١٩٩٤، أيضا هناك قتال بدأ بين الأنجوش والأرثوذكس الأستونيين.

وفى نهر الفولجا نجد المسلمين التتار يحاربون الروس فى الماضى، وفى أوائل التسعينيات استطاعوا الوصول إلى مصالحة مع الروس بالحصول على سيادة محدودة.

وفى الشرق الأوسط نجد الصراع اليهودى فى فلسطين والذى يرجع إلى إقامة وطن لليهود فى فلسطين. وقد قامت أربع حروب بين العرب وإسرائيل. وقام الفلسطينيون بانتفاضة ضد الحكم الإسرائيلى ! (ويعتبر هنتنجتون الانتفاضة ضد الاحتلال عملا إجراميا من جانب المسلمين!!). وفى لبنان نجد الموارنة المسيحيين خاضوا معركة خاسرة ضد الشيعة المسلمين والمسلمين الآخرين. وإذا انتقلنا إلى أثيوبيا نجد الأمهريين الأرثوذكس قد عانوا من الاضطهاد تاريخيا وفى أفريقيا نجد صراعات متنوعة قامت بين العرب والمسلمين فى الشمال من جانب والمسيحيين السود فى الجنوب على جانب آخر. والحرب الدموية كانت بين المسلمين والمسيحيين فى السودان، وهى مستمرة منذ عقود، وكانت نتيجتها مئات الآلاف من الضحايا.

أيضا فى نيجيريا نجد صراعا بين قبائل الفولانى والهوسا المسلمة فى الشمال من جانب والقبائل المسيحية فى الجنوب على جانب آخر. نفس الشىء موجود فى تشاد وكينيا وتنزانيا، حيث يحتدم الصراع الشديد بين المسلمين والمسيحيين.

ونجد فى كل هذه المناطق ـ والكلام لهنتنجتون ـ العلاقات بين جماعات المسلمين وشعوب حضارات أخرى: الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس،

والهندوس والصينيين، والبوذية واليهودية؛ كانت بشكل عام علاقات عدائية، وكان معظمها علاقات عنيفة إلى حد كبير فى الماضى. والعديد منها كان علاقات عنيفة فى التسعينيات، ومن ثم على طول محيط وحدود الإسلام، نجد المسلمين لديهم مشاكل فى العيش بسلام مع جيرانهم!

ويطرح هنتنجتون سؤالا وهو: إلى أى حد سيقف هذا النوع من الصراع بين المسلمين والجماعات الأخرى غير المسلمة؟ فعلى الرغم من أن المسلمين يشكلون خمس سكان العالم، لكنهم فى أواخر التسعينيات كانوا أكثر الشعوب دخولا فى أحداث عنف مع جماعات متداخلة، والدلائل على ذلك كثيرة جدا!

إلى هذا الحد وصل العداء والمغالطة ضد الإسلام والمسلمين!

ينتقل بعد ذلك هنتنجتون إلى أحد الأغراض الأساسية من نظريته، وهو تكريس فكرة الهيمنة الغربية، من منطلق الغرب القوى ضد باقى العالم إذ يقول : الغرب الآن لديه قوة غير عادية بالنسبة للحضارات الأخرى، وخاصة بعد أن اختفى من الخريطة القطب الآخر والمعارض القوى «الاتحاد السوفيتى السابق». ولم تعد فكرة الصراعات العسكرية بين الدول الغربية واردة. فى نفس الوقت لايمكن لأية قوة أخرى منافسة القوة العسكرية الغربية.

وعلى الجانب الاقتصادى، فإنه ـ بعيدا عن اليابان ـ لايواجه الغرب تحديات اقتصادية، فهو يتسيد المؤسسات السياسية والأمنية الدولية، كما أن القضايا الأمنية والسياسية العالمية تتم تسويتها وفقا لتوجيهات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، بينما تتم تسوية القضايا الاقتصادية وفقا لتوجيهات الولايات المتحدة وألمانيا واليابان، حيث تحتفظ هذه الدول فيما بينها بعلاقات وثيقة، وذلك من أجل إقصاء الدول الصغرى والدول غير الغربية، بينما يتم عرض القرارات التى تتخذ فى مجلس الأمن وصندوق النقد الدولى، تلك القرارات التى تعكس اهتمامات دول الغرب باعتبارها قرارات مطابقة لإرادة ورغبات المجتمع الدولى. وأصبحت عبارة «المجتمع الدولى» بديلا لمصطلح «العالم الحر»، وذلك لإضفاء نوع من الشرعية الدولية على القرارات والتصرفات التى

تعكس اهتمامات الولايات المتحدة والقوى الغربية الأخرى ، ومن خلال صندوق النقد الدولى والمؤسسات الاقتصادية الدولية الأخرى، فإن الغرب يحقق أغراضه الاقتصادية وفرض السياسات الاقتصادية التى يراها ملائمة للدول الأخرى. وبلا شك فإن صندوق النقد الدولى سيفوز بدعم وزراء المالية إلى جانب بعض الأقلية فى أى استطلاع للرأى بين شعوب دول العالم غير الغربى. ولكنه أيضا سيحظى بنسبة معارضة كاسحة من قبل كل فرد تقريبا فى هذه الدول. وهؤلاء يتفقون مع توصيف « جورج أربانوف » لمسئولى صندوق النقد باعتبارهم « البلاشفة الجدد » الذين يحبذون تأميم أموال الآخرين، بفرضهم قواعد غريبة وغير ديمقراطية للعلاقات السياسية والاقتصادية ومقيدين للحرية الاقتصادية فى دول العالم غير الغربى!

هذه هى الصورة التى يرى فيها غير الغربيين العالم الجديد. وهناك شىء كثير من الحقيقة فى هذه النظرة. فالاختلاف فى القوة والصراعات من أجل السلطة العسكرية والاقتصادية والتحكم فى المؤسسات التى تسيطر عليها؛ هى أحد أسباب الصراع بين الغرب والحضارات الأخرى، كما أن الاختلاف فى الثقافة - وهى المعتقدات والقيم الأساسية - يعتبر سببا آخر فى الصراع. وكان «فى. إس. نيبول» قد ذكر أن : «الحضارة الغربية هى « الحضارة الكونية » التى تناسب كل البشر».

فكرة الحضارة الكونية!

وعلى المستوى الظاهرى فإن الحضارة الغربية قد اجتاحت باقى العالم بالفعل، ولكن على مستوى أعمق فإن المفاهيم الغربية تختلف بشكل أساسى عما هو سائد فى باقى الحضارات. فالأفكار الغربية عن الفردية والليبرالية والدستورية وحقوق الإنسان والمساواة والحرية وسيادة القانون والديمقراطية والأسواق الحرة وفصل المؤسسة الدينية عن الدولة، هذه الأفكار لاتجد صدى واسعا فى كل من الحضارات الإسلامية والكونفوشيوسية واليابانية والهندوكية والبوذية، بل حتى الثقافة الأرثوذكسية. والجهود الغربية المبذولة لنشر هذه الأفكار تتسبب فى رد فعل مضاد، تم تسميته «إمبريالية حقوق الإنسان»، وإعادة التأكيد على القيم الطبيعية كما هو ملاحظ فى مساندة الجيل الجديد للأصولية الدينية فى الثقافات غير الغربية.

إن فكرة وجود «حضارة كونية» هي فكرة غربية، وهي على خلاف تام مع خصوصية معظم المجتمعات الآسيوية، وتأكيد هذه المجتمعات على ما يفرق شعبا عن الآخر. وبالفعل فقد توصل أحد المؤلفين لأحد المراجع التي تناولت مائة دراسة مقارنة للقيم في مجتمعات مختلفة إلى أن «القيم التي تمثل أهمية كبرى للغرب ليست على نفس درجة الأهمية في باقي أنحاء العالم».

وعلى الصعيد السياسي فإن هذه الاختلافات هي بالطبع أكثر وضوحا في جهود الولايات المتحدة والقوى الغربية الأخرى لدفع باقي الشعوب لتبني الأفكار الغربية المتعلقة بالديمقراطية وحقوق الإنسان، وعندما أخذت النخبة في المجتمعات غير الغربية لتلك الأساليب، كانت نتاجا للسياسة الاستعمارية الغربية أو أنها فرضت فرضا على هذه المجتمعات.

إن المحور المركزي للسياسات العالمية في المستقبل سيكون غالبا كما وصفته عبارة «كيشور محبوباني»(*): هو الصراع بين الغرب والباقي «باقي دول العالم»، واستجابة الحضارات غير الغربية لقيم وقوى الغرب. وهذه الإستجابات أو ردود الأفعال عموما تأخذ شكلا بعينه أو مجموعة من ردود الأفعال. فالدول غير الغربية من ناحية تحاول أن تفرض نوعا من العزلة، للفصل بين مجتمعاتها وبين «الفساد» الغربي، ومن أمثلة هذه الدول بورما، وكوريا الشمالية. وبالتالي الابتعاد عن المشاركة في المجتمع العالمي الذي يسوده الغرب. ولهذه العزلة ثمن فادح، ولم تستطع سوى دول قليلة فقط تنفيذها بنجاح. والبديل الآخر هو «اللحاق بالركب» أو الانضمام للموكب، وهو يعني في نظرية العلاقات الدولية المحاولة للانضمام للغرب وقبول قيمه ومؤسساته وأفكاره. أما الخيار الثالث فهو محاولة «التوازن» مع الغرب -بتطوير القوة العسكرية والاقتصادية والتعاون مع المجتمعات غير الغربية الأخرى ضد الغرب، مع الاحتفاظ بالقيم والمؤسسات والأفكار القومية. باختصار فإن الخيار الثالث يعني «التحديث» وليس «التغريب».

وفي المستقبل حيث يعتبر الأفراد الحضارة معيارا يوضح الفروق بينهم، فإن

(*) كيشور محبوباني. "The Pacific way" "Foreign Affairs, 74" (Jan./ Feb. 1995).



كمال أتاتورك

دولا ذات أعداد كبيرة من السكان ينتمون لحضارات مختلفة، مثل الاتحاد السوفيتى أو يوغسلافيا السابقتين، تكون الأكثر عرضة للتمزق.

وبعض الدول الأخرى لديها قدر معتدل من التجانس، ولكنها منقسمة حول ما إذا كانت مجتمعاتهم تنتمى لحضارة ما دون الأخرى، وهذه هى الدول المشتتة، وهى الدول التى يحاول زعماؤها اتباع استراتيجية «مسايرة الركب»، وجعل بلادهم ضمن الدول الغربية، إلا أن تاريخ وثقافة وتقاليد بلادهم غير غربية. وأوضح نموذج للدول المشتتة هو «تركيا»، وظل زعماء تركيا خلال القرن العشرين يتبنون سياسة «كمال أتاتورك» فى تعريف تركيا باعتبارها دولة علمانية غربية حديثة. وضموا تركيا للغرب فى حلف الناتو، وأيضا فى حرب الخليج انضموا للقوى الغربية. وقد طالب الزعماء الأتراك بالعضوية فى الاتحاد الأوروبى.

لكن فى نفس الوقت دعمت التيارات فى المجتمع التركى إحياء الاتجاه الإسلامى مؤكدين أن تركيا هى مجتمع مسلم شرق أوسطى فى أساسه. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه فى الوقت الذى تنظر فيه طبقة الصفوة التركية إلى أن تركيا مجتمع غربى، فإن الصفوة الغربية ترفض قبول تركيا من هذا المنظور، ولن تصبح عضوا فى المجتمع الأوروبى. والأسباب الحقيقية كما يصفها الرئيس تورجت أوزال «أننا مسلمون وهم مسيحيون، لكنهم لايقولون ذلك». وبرفض تركيا لجذورها الحقيقية، ورفض بروكسيل والاتحاد

الأوروبى لها، يبقى السؤال : أين تقف تركيا؟! ربما تكون طشقند هى الحل، فقد عمل تفكك الاتحاد السوفيتى على إتاحة الفرصة لتركيا لكى تصبح قائدا للحضارة التركية الناهضة المتعلقة بسبع دول تقع على الحدود بدءا من اليونان، وحتى الحدود مع الصين. وتبذل تركيا ـ بتشجيع من الغرب ـ جهودا مكثفة لفرض هذه الشخصية الجديدة.

خلال العقد الماضى اتخذت المكسيك موقفا مماثلا لموقف تركيا. فكما هجرت تركيا معارضتها التاريخية لأوروبا محاولة بذلك الانضمام إليها.. قامت المكسيك أيضا بالتوقف عن تعريف نفسها باعتبارها المعارض الدائم للولايات المتحدة.. وبدلا من ذلك تحاول المكسيك أن تحذو حذو الولايات المتحدة، والانضمام إلى منطقة التجارة الأمريكية الحرة. وينشغل الزعماء المكسيكيون الآن بإعادة تعريف الهوية المكسيكية إلى جانب تقديم إصلاحات اقتصادية أساسية، والتى ستؤدى بالتبعية إلى تغيرات سياسية جذرية. وفى عام ١٩٩١ شرح لى أحد المستشارين الكبار للرئيس كارلوس ساليناس دى ـ جورتارى شرحا مطولاً تناول فيه كل التغيرات التى تقوم بها حكومة ساليناس، وعند انتهائه من شرحه علقت قائلا: إن ذلك شىء مدهش، فالأمر كما يبدو لى أنكم تريدون تغيير المكسيك بصورة أساسية من دولة أمريكية لاتينية إلى دولة أمريكية شمالية، فنظر إلىَّ مندهشا وقال: «بالضبط.. هذا تماما ما نريد أن نفعله، ولكننا بالطبع لا يمكن أن نذكر هذا علانية». وهذا يعنى أن العناصر العامة فى البلاد ترفض إعادة تعريف هويتها.

وتاريخيا نجد المكسيك من أكثر البلاد تمزقا. وبالنسبة للولايات المتحدة، فعلى الرغم من أن المكسيك هى من أكثر البلاد تمزقا حاليا ودولياً، إلا أن أمريكا تهتم بأهم البلاد الممزقة هى روسيا. والتساؤل يدور فى روسيا حول كينونة روسيا كجزء من الغرب أو زعيمة للمجتمعات السلافية الأرثوذكسية. وقد كان تساؤلا ملحا فى تاريخها. وقد ازدادت هذه القضية غموضا بعد انتصار الشيوعية فى روسيا، والتى جاءت بالفكر الغربى للبلاد، وكيفت هذه الأيديولوجية مع الظروف الروسية، ثم تحدت الغرب فيما بعد تحت اسم هذه الأيديولوجية وأدت السيطرة الشيوعية إلى إغلاق الباب أمام المناقشة التاريخية حول فكرة التغريب ضد «الترويس» (أى محاولة أن يكون الفرد روسياً) إذا جاز هذا التعبير، ومع انهيار الشيوعية فإن الروس يواجهون نفس التساؤل مرة أخرى!

ولقد تبنى بوريس يلتسين مبادىء وأهدافاً غربية محاولا جعل روسيا «دولة طبيعية» وجزءاً من الغرب. ومع ذلك فإن طبقة الصفوة وعامة الشعب منقسمون حول هذه القضية. ومن بين المعارضين المعتدلين «سيرجى ستانكيفيتش»، والذى يرى أن روسيا يجب أن ترفض «الأطلانطيين» والذين سيقودونها إلى أن تصبح «أوروبية»، وأن تصبح جزءا من الاقتصاد العالمى بطريقة سريعة ومنظمة، وأن تصبح العضو الثامن «للسبعة الصناعيين الكبار»، وأن تضع تأكيدات معينة على دولتى ألمانيا والولايات المتحدة باعتبارهما العضوين المهيمنين فى تحالف الأطلنطى.

وفى الوقت الذى يرفض فيه «ستانكيفيتش» بشدة سياسة «الأوروآسيوية»، فهو يرى أن «تمنح روسيا الأولوية لحماية الروس فى الدول الأخرى، وتؤكد صلاتها التركية والإسلامية، وأن تعمل على إعادة توزيع مصادرنا وخياراتنا وارتباطاتنا واهتماماتنا لصالح آسيا والاتجاه الشرقى».

وقد انتقد أنصار هذا الاتجاه يلتسين بسبب وضعه اهتمامات روسيا فى المرتبة التالية بعد الاهتمامات الغربية، وبسبب تقليله لقوة البلاد العسكرية، وفشله فى دعم الأصدقاء التقليديين مثل الصرب، وفرض الإصلاح السياسى والاقتصادى بطريقة مؤلمة للشعب الروسى. وهذا الاتجاه تؤكده الشعبية الجديدة لأفكار «بيترسافيتسكى» الذى أكد فى العشرينيات أن روسيا هى حضارة أوروآسيوية فريدة من نوعها. وتتعجل والأصوات المتطرفة والوطنية فى روسيا والتى تنادى بالقومية ومعارضة الغرب ومعارضة السامية مسألة تطوير قوات روسيا العسكرية وتطوير علاقات أقوى مع الصين والدول الإسلامية، بينما الشعب منقسم تماماً مثل طبقة الصفوة الروسية. وفى استطلاع للرأى أجرى فى روسيا الأوروبية عام ١٩٩٢، كشف عن أن ٤٠٪ من الشعب لديه نظرة إيجابية نحو الغرب، وأن ٣٦٪ لديهم نظرة سلبية. وكما كانت طوال معظم تاريخها، فإن روسيا منذ التسعينيات هى دولة ممزقة فعلياً.

الدولة الممزقة

ولإعادة تعريف هويتها الحضارية، فإن الدولة الممزقة يجب أن تفى بثلاثة متطلبات.

أولا: يجب أن تكون طبقة كبار السياسيين والاقتصاديين مساندة ومتحمسة بشأن

هذه الحركة (إعادة تعريف الهوية الحضارية) .

ثانيا: يجب أن يتفق شعبها مع هذه الفكرة ويحبذها.

ثالثا: يجب أن تتقبل الجماعات المسيطرة فى الحضارة الجديدة فكرة محاولة التغيير.

وجميع هذه المتطلبات موجودة فى المكسيك، بينما يتواجد العاملان الأولان فقط فى تركيا، ولا نرى تواجد لأى منهما فى روسيا فى محاولتها الانضمام للغرب. لأن الصراع بين الديمقراطية الليبرالية والماركسية اللينينية كان صراعا بين أيديولوجيتين، اشتركتا فى الأهداف الرئيسية وهى : الحرية والمساواة، والرخاء، على الرغم من اختلاف هاتين الأيديولوجيتين. ويجب أن يستمر الديمقراطى الغربى فى مناقشة العقلية الثقافية مع الماركسى السوفيتى. وافتراضيا: فإن ذلك قد يكون ممكنا مع الرجعى الروسى. وإذا رفضوا الديمقراطية الليبرالية، وبدأوا فى التصرف كروس، وليسوا كغربيين، فإن العلاقات بين روسيا والغرب ستعود مرة أخرى متباعدة ومتصارعة!

ينتقل بعد ذلك «هنتنجتون» إلى ما يطلق عليه العلاقة الإسلامية الكونفوشيوسية، إذ يقول: تتعدد العقبات أمام انضمام الدول غير الغربية إلى الغرب، فهى لا تصل إلى مستوى الدول اللاتينية أو الشرقية الأوروبية، وبعيدة عن الدول الأرثوذكسية كالاتحاد السوفيتى السابق. كما أن هذه الدول مازالت بعيدة عن المجتمعات الإسلامية والكونفوشيوسية والهندوكية والبوذية. وقد حددت اليابان لنفسها موقعا فريدا كعضو له علاقة بالغرب. وهو الموقف الذى يتفق مع الغرب تماما فى عدة نقاط، إلا أنها غير غربية فى أبعاد هامة واضحة. فهذه الدول التى لا يمكنها لأسباب حضارية وثقافية الانضمام للغرب، وتعمل على التنافس معه من خلال زيادة قوتها الاقتصادية وتطوير قوتها العسكرية والسياسية. وهذه الدول تفعل ذلك عن طريق رفع وتحسين التنمية الداخلية، والتعاون مع الدول غير الغربية، وأهم أشكال هذا التعاون هو العلاقة الكونفوشيوسية الإسلامية، التى ظهرت لتتحدى قيم واهتمامات وسلطة الغرب.

وتقوم دول الغرب جميعها تقريبا بخفض قوتها العسكرية، وأيضا روسيا فعلت ذلك تحت زعامة يلتسين. بينما تعمل الصين وكوريا الشمالية والعديد من دول الشرق الأوسط على زيادة قدرتها العسكرية من خلال استيراد الأسلحة من مصادر غربية، وغير غربية، وتطوير صناعة السلاح المحلى. وإحدى نتائج هذا هو ما أسماه «تشارلز كرو شامر» بدول السلاح، وهذه الدول ليست دولا غربية. ونتيجة أخرى لذلك هى إعادة تعريف التحكم فى انتشار الأسلحة، وهو هدف ومفهوم غربى.

وخلال الحرب الباردة كان الهدف الأساسى فى التحكم فى انتشار السلاح؛ هو تحقيق نوع من التوازن العسكرى بين الولايات المتحدة وحلفائها من جهة؛ والاتحاد السوفيتى وحلفائه من جهة أخرى. وبعد الحرب الباردة فإن الهدف الأساسى هو منع تطوير الدول غير الغربية لقدراتها العسكرية، والتى يمكن من خلالها تهديد المصالح الغربية. ويحاول الغرب ذلك من خلال الاتفاقيات الدولية والضغط الاقتصادى والتحكم فى نقل السلاح وتكنولوجيا تصنيعه.

إن الصراع بين الغرب من جانب، والدول الإسلامية والكونفوشيوسية من جانب آخر، يتركز حول السلاح النووى والبيولوجى والكيميائى والذخيرة المتطورة والوسائل المتعددة لحمل كل هذه الأسلحة.

ومن ثم نجد الغرب يفرض عقوبات ضد الدول التى تعمل على نشر السلاح، بالإضافة إلى توفير نوع من المكافأة للدول التى تلتزم باتفاقيات منع انتشار السلاح.

ويتركز اهتمام الغرب فى هذا الشأن بالدول التى تكن عداءات معينة للغرب. بينما ترى الدول غير الغربية ضرورة الحصول على حقوقها فى امتلاك وتوظيف وتطوير أى سلاح تراه مناسبا لتامين سلامتها إلى الحد الذى استوعبت معه هذه الدول مقولة وزير الدفاع الهندى عند سؤاله عن الدروس المستفادة من حرب الخليج، فأجاب: «عليك ألا تحارب الولايات المتحدة دون أن تمتلك السلاح النووى». فالصين بالطبع تمتلك سلاحاً نووياً، كما أن لدى كل من الهند وباكستان القدرة على تصنيعه. وقد صرح أحد كبار المسئولين الإيرانيين أن كل الدول الإسلامية من حقها المطالبة بامتلاك السلاح النووى. وفى عام ١٩٨٨ طالب الرئيس الإيرانى بتطوير السلاح الدفاعى والهجومى، سواء كان سلاحا كيميائيا أو بيولوجيا أو نوويا.

ومن الأمور المهمة للجانب المضاد للغرب، أن تتطور القوة العسكرية للصين بشكل مقبول لخلق نوع من التوازن العسكرى. وتزيد الصين الآن من إنفاقها العسكرى إلى جانب تحديث قوتها العسكرية باستمرار. وهى تحصل على السلاح من الاتحاد السوفيتى السابق، كما أنها طورت من الأسلحة بعيدة المدى الموجودة لديها. وفى عام ١٩٩٢ قامت بإجراء تجارب على سلاح نووى قوته واحد ميجا طن. وتحاول الحصول على حاملة طائرات، وهو ما يخلق سباق تسلح متعدد الأطراف فى شرق آسيا، إلى جانب أن الصين تعد مورداً هاما للسلاح، وتكنولوجيا تصنيع السلاح، حيث قامت بتصدير أسلحة إلى ليبيا والعراق يمكن أن تستخدم فى تصنيع الأسلحة النووية وغاز الأعصاب، كما ساعدت الجزائر فى بناء مفاعل يمكن أن يستخدم فى

تصنيع السلاح النووى وإنتاجه. وقد صدرت إلى إيران شحنة من تكنولوجيا المواد النووية التى يجزم المسئولون الأمريكيون بأنها لا تستخدم سوى للأغراض العسكرية، كما أنها شحنت مكونات أسلحة بعيدة المدى (٣٠٠ ميل) إلى باكستان.

هناك أيضا كوريا الشمالية التى تمتلك برنامجا نوويا متقدما، وباعت التكنولوجيا المستخدمة فى تصنيعه إلى إيران وسوريا. تيار مبيعات السلاح وتكنولوجيا التسليح يسير من شرق آسيا إلى الشرق الأوسط، إلى جانب أن هذا التيار قد يسير أحيانا فى الاتجاه المعاكس. فقد تسلمت الصين فى إحدى المرات من باكستان صواريخ «ستنجر» المضادة للطائرات والأمريكية الصنع، والتى تعتبر أحدث ما أنتج فى هذا المجال.

إن العلاقات العسكرية الكونفوشيوسية ـ الإسلامية المقامة لخلق توازن عسكرى مع الغرب قد تستمر أو لا تستمر. وهذا التنافس العسكرى يختلف عن التنافس العسكرى القديم، حينما كان أحد الأطراف يطور سلاحا لخلق التوازن أو تحقيق التفوق العسكرى على حساب الطرف الآخر فى ظل سباق التسلح. أما التنافس العسكرى الجديد فيتخذ شكلا مغايرا، حيث يطور أحد الأطراف سلاحه، بينما يحاول الطرف الآخر الحد من هذا التطوير، ومنع تصنيع هذا السلاح. وفى الوقت نفسه يقلل من قدرته العسكرية هو شخصيا، فلا يحاول التوازن أو التفوق.

وما يهمنا فى هذا المجال هو توضيح ذلك الحصار المفروض على العالم الإسلامى لتصنيع صواريخ أرض ـ أرض، وأسلحة نووية. ولعل هذا التوضيح يفسر لنا مشاعر العداء والتخوف من العالم الإسلامى بعد أن عمل بعض المفكرين من أمثال «هنتنجتون» على تصوير الإسلام والمسلمين على أنهم الأعداء الجدد للغرب.

وإذا كنا قد استطردنا فى عرض أفكار «هنتنجتون»، فإنما دافعنا وراء ذلك هو كشف جوانب كثيرة من سياسات غير مفهومة تتبع إزاء العالم الإسلامى والمسلمين ابتداءً من مناصرة إسرائيل وانتهاءً بحظر الأسلحة الاستراتيجية على الدول العربية والإسلامية. وإن أقصى ما يتمناه أصحاب هذه النظريات هو أن يركبنا العناد والتهور وندخل فى مسار تصادمى مع الغرب، أو أن نمارس العداء فعلا إزاء الغرب وحضارته، لأن ذلك من شأنه اكتمال دائرة الدمار الذى يريده لنا أصحاب هذه النظريات الخبيثة، ومن يحركونهم.

وأغلب الظن أننا نعرف جميعا من يحرك هؤلاء(!!)

الخـــريطـــة
«الجيوحضارية»
..ستار حديدى
..وآخر حريرى!

إن تصادم الحضارات الذى يحدث يكون على مستويين: الأول: وهو المستوى المجهرى أى غير المنظور، ويكون بين المجموعات المتاخمة على امتداد خط الاختلاف بين الحضارات، وغالبا ما يكون عنيفا، وخارجا عن سيطرة الإقليم وكل من الحضارتين المتصادمتين اللتين تقعان فى نفس الإقليم.

الثانى: وهو المستوى المنظور، حيث نجد أن الأمم من الحضارات المختلفة تتنافس فى صراع من أجل القوة العسكرية النسبية، والقوة الاقتصادية أيضا، وتناضل من أجل الخروج على سيطرة المنظمات الدولية، وأيضا الخروج عن كونها بين مجموعة العالم الثالث. وهذا التنافس يؤدى إلى ظهور سياستها الخاصة وقيمتها الدينية.

وبعد انتهائه من تعديد أسباب الصراع الحضارى يعرج «هنتنجتون» إلى رسم خريطة «جيوحضارية» إذا جاز التعبير، من خلال ما يطلق عليه خطوط التصدع بين الحضارات فى العالم، إذ يقول: إن خطوط الاختلاف بين الحضارات هى التى حلت الآن محل الحدود السياسية، والأيديولوجية للحرب الباردة، وأصبحت نقطة مضيئة وواضحة، تشير إلى الأزمة وإراقة الدماء.

لقد بدأت الحرب الباردة، بعدما أدى الستار الحديدى إلى تقسيم أوروبا سياسيا وفكريا. وانتهت هذه الحرب مع انهيار هذا الستار الحديدى، مما أدى إلى اختفاء التقسيم الأيديولوجى لأوروبا. ومن



سور برلين

ثم بدأ تقسيم آخر، حيث تقع أوروبا بثقافتها المسيحية الغربية فى جانب، وعلى الجانب الآخر الثقافة المسيحية الأرثوذكسية، بينما يقف على جانب ثالث الإسلام.

ولقد عادت خطوط التقسيم بشكل واضح وأكثر تحديداً فى أوروبا كما طرحها «ويليام دالاس». وربما كانت خطوط الحدود الشرقية للمسيحية الغربية فى عام ١٥٠٠.. تنصرف إلى ما هو الآن ضمن الحدود بين فنلندا وروسيا، وبين دول البلطيق وروسيا، حيث تقع خلالها روسيا البيضاء وأوكرانيا؛ فاصلة أوكرانيا الغربية ذات الأغلبية الكاثوليكية عن أوكرانيا الشرقية الأرثوذكسية.

أيضا أدى التجاذب الغربى إلى فصل إقليم «ترانسلفانيا» عن باقى رومانيا، ثم مر خلال يوغسلافيا على طول الخط الذى يفصل الآن بين كرواتيا وسلوفينيا «الكاثوليك» من جانب وباقى دول الاتحاد اليوغسلافى من جانب آخر.

يتفق هذا الخط فى البلقان مع الحدود التاريخية بين «هابسبرج» والامبراطورية التركية، فنجد أن مواطنى المناطق الواقعة شمال هذا الخط هم من البروتستانت أو الكاثوليك.. الذين يتشاركون فى التاريخ الأوروبى ممثلاً فى عصور الإقطاع، النهضة الأوروبية، الإصلاح، التنوير، الثورة الفرنسية، والثورة الصناعية. وهذه المناطق أفضل اقتصاديا بصفة عامة من الوضع الاقتصادى للمواطنين على الجانب الشرقى لهذا الخط. وربما تتجه هذه الدول الواقعة غرب هذا الخط (أى الدول الكاثوليكية والبروتستانتية) إلى الاندماج فى الاقتصاد الأوروبى وأيضا فى النظام السياسى والديمقراطى.

أما الشعوب القاطنة للمناطق الواقعة شرق وجنوب هذا الخط، فهم من الأرثوذكس أو المسلمين. وينتمون تاريخيا إلى الأتراك أو الامبراطورية القيصرية «روسيا القيصرية». وكانوا على هامش تشكيل الأحداث فى باقى دول أوروبا. وبشكل عام تجدهم الأقل من الناحية الاقتصادية، ويبدو أنهم أقل كثيرا فى احتمالات إرساء نظام سياسى ديمقراطى مستقر، لأن الستار الحريرى الثقافى الذى حل محل الستار الحديدى الأيديولوجى، قد أصبح الآن الأكثر تحديدا لخط التقسيم الثقافى فى أوروبا. وكما أكدت الأحداث، نجد أن يوغسلافيا السابقة ليست فقط على خط الاختلاف؛ لكنها بالفعل مغروسة فى خطوط الصراع الدموى.

نلاحظ هنا أن نظرية «هنتنجتون» يعتريها التناقض الشديد، الذى يعكس بشكل فاضح مدى أفكاره العنصرية، لأنه إذا لم تكن الأرثوذكسية تعبيرا عن الثقافة الغربية فماذا تكون؟ إن الشعب السلافى الأرثوذكسى هو شعب أوروبى يتبنى الثقافة الغربية، والأكثر من ذلك فلا يوجد هناك خلاف كبير بين الأرثوذكسية وباقى المذاهب المسيحية الأخرى، بل على عكس ما

يذهب إليه «هنتنجتون» فإن الأرثوذكسية فى معتقداتها وطقوسها أقرب كثيراً للكاثوليكية من البروتستانتية، فى حين أن «هنتنجتون» يفعل العكس ، إذ يجعل البروتستانتية هى الأقرب للكاثوليكية. ولا يزال السبب الذى على أساسه قام «هنتنجتون» بعزل المسيحية الأرثوذكسية عن باقى أشكال المسيحية الأخرى مجهولاً. والتفسير الوحيد والواضح بشدة من خطاب «هنتنجتون» أنه يميل إلى المركزية الأوروبية فى تحليلاته. كما أنه متأثر بالتركيبة المذهبية الأمريكية، حيث توجد أغلبية بروتستانتية يليها فى الترتيب الكاثوليك، بينما يكاد ينعدم وجود الأرثوذكسية باستثناء فئة قليلة جداً من المهاجرين الشرقيين الذين يعتنقون هذا المذهب.

الملاحظ أيضا أن «هنتنجتون» لم يتوخ الموضوعية، فلم يذكر لنا لماذا ظهرت البروتستانتية؟ ولم يذكر الحروب الطاحنة التى كانت بين الكاثوليك والبروتستانت، والتى لاتزال الحرب الأيرلندية الدائرة حتى الآن أبرز مثال عليها. ولم يفسر أسباب سيادة الكاثوليكية فى الجنوب الأوروبى، والبروتستانتية فى الشمال. والأسوأ من هذا لم يوضح لنا «هنتنجتون» كيف يكون تعدد اللغات داخل أوروبا ميزة للحضارة الواحدة هناك؟ وإذا أخذنا فى الاعتبار أن اللغة تعكس ثقافة هذه الشعوب فكيف يمكن تجاهلها؟

أيضا نجد أن خطاب صدام الحضارات يتجاهل الظروف التاريخية التى جعلت من الغرب كيانا حضاريا متفرداً(*)، فالفصل بين السلطات الروحية والسياسية لم يأت إلا بعد صراع عنيف مع السلطة الحاكمة باسم الحق الإلهى، وأن هذا الفصل بين السلطات، كما تذكره حقائق التاريخ، لم يتحقق فى أوروبا إلا بعد ظهور البرجوازية الأوروبية وما ترتب على ذلك من تداعيات. فالعالم - كما نعرف جميعا - لم يعرف الحكومات الدينية، إلا فى التاريخ الأوروبى فى العصور الوسطى، ولم يعرف الإنسان أسوأ من ممارسات محاكم التفتيش وعصور الظلام فى أوروبا، وهذا ما اعتذرت عنه الكنيسة

(*) دراسة عن نظرية صدام الحضارات - الدار الجماهيرية - ١٩٩٩ .

الكاثوليكية مؤخرا على لسان البابا يوحنا بولس الثانى الذى أدان هذه الممارسات التى وقعت فى الماضى!! كل ذلك كان يحدث فى الوقت الذى كانت فيه هناك حضارات مزدهرة مثل الحضارة الإسلامية.

وهذه الأسباب كلها تجعل نظرية صدام الحضارات نظرية تلفيقية لأنها تجاهلت الظروف التاريخية التى جعلت من الغرب كيانا حضاريا متفردا.

صراع الغرب والإسلام!

نعود مرة أخرى لما يقوله «هنتنجتون» إذ يرى أنه يوجد هناك صراع آخر يدور على خطوط الاختلاف بين الحضارتين الغربية والإسلامية، والذى استمر منذ ثلاثة عشر قرنا وحتى الآن، أى منذ ظهور الإسلام.

لقد انطلق العرب غربا وشمالا، وانتهت فتوحاتهم عند «تورس» عام ٧٣٢ ميلادية. حاول الصليبيون منذ القرن الحادى عشر، وحتى القرن الثالث عشر - فى نجاح مؤقت - إدخال قوانينهم وثقافتهم إلى الأرض المقدسة فى فلسطين. ومنذ القرن الرابع عشر وحتى السابع عشر، قلب الأتراك العثمانيون الميزان. وامتدت امبراطوريتهم إلى الشرق الأوسط والبلقان. ودخلوا إلى القسطنطينية. وحاصروا «فيينا» مرتين فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ومع انهيار القوة العثمانية، أعلنت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا الهيمنة الغربية على معظم شمال أفريقيا والشرق الأوسط.

ولكن بعد الحرب الأهلية الغربية بين عامى ١٩٣٩ و١٩٤٥ - يقصد الحرب العالمية الثانية - بدأ الغرب بدوره الانسحاب. واختفت الامبراطورية الاستعمارية. وظهرت أولا القومية العربية، ثم فرضت الأصولية الإسلامية نفسها خلال السنوات الأخيرة.

لعل «هنتنجتون» هنا يبدو كما لو كان يرتدى زى أحد فرسان المعبد الصليبيين، يمتطى جواده، وفى إحدى يديه صكوك الغفران وإنعامات الحبر الأعظم «البابا»، وفى اليد الأخرى السيف، من أجل خوض حروب مقدسة

مزعومة لتحرير بيت المقدس. الغريب أن يأتى هذا فى الوقت الذى يعلن فيه الفاتيكان بشكل رسمى عن اعتذاره عن هذه الحملات المتعصبة العمياء، التى راح ضحيتها الكثيرون من أبناء شعوب المنطقة، ونهبت فيها ثروات الشرق. بينما يطل علينا «هنتنجتون» بأفكار العصور الوسطى متناسيا أو غير مدرك دوران عجلة التاريخ، وبعد ذلك يزعم أنه يرسى دعائم نظرية جديدة!

بالإضافة إلى ذلك، إلى أى شىء يستند فى قوله أن القومية العربية انتهت وحلت محلها الأصولية الإسلامية؟! قد تكون معظم الأنظمة العربية الآن فى حالة ضعف وتفكك، لكن هذا لايعنى على الإطلاق أن القومية العربية قد انتهت، بل وطبقا لنظرية «هنتنجتون»؛ نفسه فمن المستحيل القضاء على القومية العربية، مادامت هناك لغة مشتركة وتاريخ مشترك ودين مشترك لذلك فنظريته الملفقة صارت مجرد محاولة - ضمن المحاولات العديدة - التى تحاول تشويه العرب.

نجد هنا أيضا أن «هنتنجتون» ينضم إلى ركوب موجة الحرب العالمية الثانية على أساس أنها حرب أهلية أوروبية. ويتجاهل بذلك كل تضحيات شعوب العالم الثالث، وهى التى شاركت فى تلك الحرب من أجل الحصول على استقلالها، والدفاع عن مبادىء الشعوب وحقها فى تقرير مصيرها. لكن يبدو أن محاولات «هنتنجتون» لم تقتصر على التاريخ البعيد، بل امتدت لأحداث لايزال أصحابها على قيد الحياة (!!)

يعود «هنتنجتون» مرة أخرى لقلب الحقائق والثوابت التاريخية - كعادته - فهو يضع تفسيرا مغلوطا للعلاقة بين العرب والغرب خلال النصف الثانى من القرن العشرين بقوله: «لقد أصبح الغرب معتمدا على دول الخليج الفارسى (وتجاهل أنه الخليج العربى بكل بساطة)، والدول الإسلامية الغنية بالبترول، والتى عندما أصبحت غنية ماليا؛ رغبت فى أن تكون ثرية بالسلاح أيضا، وحدثت حروب متعددة بين إسرائيل والعرب».

وفى ذلك يتجاهل «هنتنجتون» جذور الصراع العربى الإسرائيلى وحتميته بسبب اغتصاب واحتلال أراضى دولة عربية بأكملها. يكن للمسألة كلها أية علاقة بالبترول والثراء، ولكن أساسا بقضم جزء حيوى من العالم العربى، وكلنا نعرف ذلك، بل وهناك فى الغرب من يعلم أكثر من ذلك!

وهذه إحدى مغالطات «هنتنجتون» التى لا تحصى، وهذا أمر غير مستغرب إذا نظرنا إلى خلفيته الثقافية التى تعتمد على عقائد المسيحية الصهيونية المسيطرة على الفكر الأمريكى. ويكفى أن نعلم أن هناك كما هائلا من الهيئات الأمريكية ليس لديها هم واحد سوى مساعدة إسرائيل ودعمها، لأنهم يرون أن نهاية العالم ستكون من خلال وجود إسرائيل وبناء هيكل سليمان؛ مقابل قوى الشيطان الذى لم يجدوا أحدا غير العرب ليجسد صورة الشيطان والعدو الجديد للسامية!

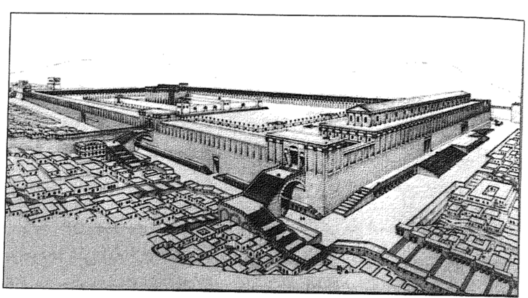
نعود مرة أخرى لمغالطات «هنتنجتون» إذ يقول: «لقد خاضت فرنسا قتالا دمويا وحربا قاسية متحجرة القلب فى الجزائر خلال الخمسينيات. وفى نفس الوقت قامت القوات البريطانية والفرنسية عام ١٩٥٦ بغزو مصر، ثم ذهبت القوات الأمريكية عام ١٩٥٨ إلى لبنان، وبعدما عادت من هناك هاجمت ليبيا، وشاركت أيضا هذه القوات مع القوات المتعددة المتحاربة مع العراق. وأيضا ضد الإرهاب العربى والإسلامى الذى يؤيد على الأقل من ثلاث حكومات فى الشرق الأوسط، وفى ظل توظيف أسلحة الحماقة ونسف الطائرات الغربية وأيضا المنشآت وتفجيرها بالقنابل، وأيضا خطف الرهائن الغربيين».

ولقد اكتمل هذا الصراع بين العرب والغرب وأصبح أكثر نضجا خلال التسعينيات، عندما أرسلت الأمم المتحدة قوات ضخمة إلى الخليج العربى للدفاع عن بعض الدول العربية ضد عدوان الآخرين عليها. وتبدو الآثار الناجمة عن خطط الناتو متمثلة فى الزيادة المباشرة للتهديد الكامن وعدم الاستقرار على طول الخطوط الجنوبية.

ومن غير المحتمل أن تتناقص عمليات الصراع العسكرى بين الغرب والإسلام، بل يمكن أن تصبح أكثر قسوة!

نعود مرة أخرى لتحليل هنتنجتون للعلاقة بين الإسلام والغرب إذ يقول: إن بعض الغربيين، من ضمنهم بيل كلينتون، يطرحون أن الغرب ليست لديه مشاكل مع الإسلام، ولكن مع المتشددين الإسلاميين، الذين يدعون إلى العنف، أربعة عشر قرنا أثبتت عكس ذلك، فالعلاقة بين الإسلام والمسيحية كانت غالبا عاصفة. كل واحد كان مترصداً للآخر. وكان صراع القرن العشرين بين الليبراليين والديمقراطيين والماركسيين اللينينيين ظاهرة سطحية زائلة، مقارنة بالعلاقة التصارعية العميقة والمستمرة بين الإسلام والمسيحية، وفى أوقات التعايش السلمى كان الظاهرة والغالب فى العلاقة هى الصراع الحاد أو درجة من درجات الحرب الساخنة «ديناميكيتها تاريخية» حسب تعليق جون إيزبوستو، وضعت المجتمعين غالبا فى منافسة، ففى أوقات يكون القتال شديدا وقاتلا؛ سعيا للسلطة والأرض والروح، وخلال أربعة عشر قرنا سقط اتباع الديانتين فى سلسلة خطيرة من الاندفاعات، ومعارضة هذه الاندفاعات. وكما لاحظ برنارد لويس فإنه خلال ألف سنة تقريبا ومنذ الوهلة الأولى التى حط فيها المغاربة فى أسبانيا، إلى الحصار التركى الثانى لفيينا أوائل القرن العشرين، كانت أوروبا تحت تهديد مستمر من الإسلام، الإسلام الحضارة التى جعلت استمرار الغرب موضع شك، ولقد فعلت هذا مرتين على الأقل.

إن أسباب هذا النمط من الصراع ـ كما يقول هنتنجتون ـ يكمن ليس فى ظاهرة التحولات المسيحية فى القرن الثانى عشر أو أصولية القرن العشرين الإسلامية، بل إنها تنبع من طبيعة الديانتين، والحضارة المؤسسة على مبادئهما، وكان الصراع من جهة نتاج خلافات، وخاصة مفهوم المسلم بأن الإسلام منهج الحياة يوحد الدين والسياسة ضد المفهوم الغربى المسيحى، الذى يفصل الدين عن السياسة، ويتأكد الصراع أيضا من التشابه بينهما، فكل منهما يؤمن بالله الواحد، وفى ذلك يختلفان عن الأديان الأخرى التى



هيكل سليمان

تشرك بالله، فكل منهما يرى العالم بطريقة مزدوجة «نحن وهم». وكل منهما عالميا يدعى بأنه الإيمان الحقيقى والذى يجب أن تعتنقه كل الإنسانية، كل منهما صاحب رسالة دينية يعتقد بأن معتقديه ملتزمون بتحويل غير المؤمنين إلى ذلك الإيمان الحقيقى الواحد. الإسلام منذ بدايته انتشر بحد السيف، وعندما سنحت الفرصة للمسيحية، فعلت كذلك، إن تماثل مفهوم «الجهاد» و«الصليب» لايجعل الدينين متشابهين فقط، ولكن تميزهما عن الأديان الكبرى الأخرى أن الإسلام والمسيحية واليهودية لديها وجهة نظر غائبة للتاريخ تعكس وجهة النظر الجامدة والدائرية للتاريخ التى تبرز فى بعض الحضارات الأخرى.

وما يطرحه هنتنجتون أمر محير، فهو يجعل التشابه الدينى سببا للتقارب بين الشعوب الغربية، ثم يحول نفس التشابه إلى سبب للصراع بين الغرب والمسلمين، وهكذا نجد أن نظريته لاتنتظم على مبدأ واحد، لكنها نظرية انتقائية يوظف خلالها ما يراه لصالح مفاهيمه الخاصة، وليس لصالح الموضوعية العلمية، بل إنه يتجاهل الحوار الإيجابى الموجود الآن بين

الإسلام والمسيحية نحو مفهوم قبول الآخر وإزالة الالتباس القديم. ولعل أبرز هذه الحوارات، تلك اللجان المشتركة بين الفاتيكان وأعرق المؤسسات الإسلامية من خلال الأزهر الشريف. وأيضا الحوار القائم مع بلاد إسلامية أخرى مثل المملكة العربية السعودية.. وأيضا الحوار بين الكنيسة الإنجيليكانية (البروتستانتية الإنجليزية)، والأزهر الشريف، أليس هذا الواقع الإيجابى وتخطى سوء الفهم المتبادل يمثل هدما لنظرية هنتنجتون؟

وماذا عن اليهودية التى تختلف بشكل جذرى مع المسيحية، بل لاتؤمن بوجودها على الإطلاق، فاليهود يؤمنون بما لا يدع مجالا للشك أنهم شعب الله المختار الوحيد فى العالم، خاصة أن الإسلام والمسلمين لم يكونوا مسئولين عن المذابح التى أقيمت لليهود على مدار التاريخ الأوروبى، حتى أنهم حرموا عليهم مجرد العيش أو السكنى إلا فى مجتمعات منعزلة، وهو ما يطلق عليه «الجيتو» اليهودى، بل إنه ألزم أى يهودى أو يهودية باعتناق المسيحية حال الزواج لمن مسيحى أو مسيحية، وحرم على اليهود تقلد مناصب عامة مهما صغرت هذه المناصب، ولعل الروايات التاريخية والأدبية الأوروبية فى عصور سابقة كانت تصور اليهودى فى أبشع صورة ممكنة. أليس الغرب هو الذى فعل ذلك وليس المسلمون؟

فلماذا إذن لا ينطبق على اليهودية نفس ما ينطبق على الإسلام؟

نعود مرة أخرى لتحليل هنتنجتون للعلاقة بين الإسلام والغرب فهو يقول: «إن مستوى الصراع العنيف بين الإسلام والمسيحية تأثر على مدى التاريخ بالنمو السكانى وانخفاضه والتطورات الاقتصادية؛ والتغيير التكنولوجى، ومدى شدة الوعود الإسلامية وانتشار الإسلام فى القرن السابع عشر صاحبته هجرة هائلة من المجتمعات العربية، بمدى وسرعة لم يسبق لها مثيل فى أراضى امبراطورية بيزنطية وسياساتها، وبعد بضعة قرون كانت الحملات الصليبية فى جزء كبير منها نتاجا لنمو الاقتصاد والتوسع السكانى فى القرن الحادى عشر فى أوروبا، الأمر الذى جعل تعبئة عدد كبير من الفرسان والفلاحين ممكنة، وذلك للذهاب إلى الأراضى المقدسة، وعندما وصلت

الحملة الصليبية الأولى إلى القسطنطينية، كتب مراقب من البيزنطيين قائلا: إنها تبدو وكأن الغرب كله متضمنا كل القبائل البربرية والتى تعيش بعد البحر الأدرياتيكى إلى آثار هيروكليس، بدا الأمر وكأنه هجرة جماعية اندفعوا خلالها إلى الأمام فى الأراضى الآسيوية بجماهير متواصلة بكل أمتعتهم»، وفى القرن التاسع عشر أدى النمو السكانى مرة أخرى إلى انفجار أوروبى، وولد هجرة ضخمة لأول مرة فى التاريخ وهى التى غزت الأراضى الإسلامية وكذلك أراضى أخرى»!

ثم يقول :«هناك عوامل مختلطة ومشابهة زادت من الصراع بين الإسلام والغرب فى القرن العشرين:

أولا: النمو السكانى للمسلمين خلق بطالة لعدد كبير، وهؤلاء الساخطون من الشباب الذين جندوا للأهداف الإسلامية، ومارسوا ضغوطا على المجتمعات المجاورة وهاجروا إلى الغرب.

ثانيا: الإحياء الإسلامى الذى أعطى للمسلمين إعادة الثقة فى أهمية حضارتهم وقيمهم مقارنة بتلك التى فى الغرب.

ثالثا: جهود الغرب فى جعل قيمهم ومؤسساتهم عالمية والمحافظة على تفوقهم العسكرى والتدخل فى صراعات العالم الإسلامى، خلقت ازدراء شديدا للغرب بين المسلمين.

رابعا: انهيار الشيوعية التى كانت عدوا مشتركا لكل من الغرب والإسلام، أدى إلى جعل كل واحد منهما ينظر للآخر على أنه مصدر تهديد له.

خامسا: الاتصال المتزايد بين المسلمين والغربيين ولد فى كل منهما شعورا جديدا بهويتهم، وكيف أن هذه الهوية مختلفة عن الأخرى، فلقد أدى التفاعل والتمازج إلى ازدياد الاختلافات حول حقوق أعضاء الحضارة الواحدة؛ فى بلاد يسيطر عليها أعضاء حضارة أخرى. لقد انحدر فى كل من المجتمعين الإسلامى والمسيحى التسامح مع الآخر بشكل حاد فى الثمانينيات والتسعينيات».

ثم يؤكد «هنتنجتون» وجهة نظره بقوله: «بغض النظر عن وجهات النظر السياسية والدينية، فإن المسلمين يثقون بأنه توجد اختلافات أساسية بين ثقافتهم والثقافة الغربية» و«الخلاف الأساسى» كما وصفه الشيخ راشد الغنوشى: «إن مجتمعاتنا مؤسسة على القيم أكثر من مجتمعات الغرب» وفى ذلك قال مسئول مصرى: « إن الأمريكان يأتون هنا ويريدوننا أن نحبهم وهم لا يفهمون شيئا من قيمنا وثقافتنا: نحن مختلفون». ويتفق صحفى مصرى مع ذلك بقوله: «نحن لدينا أرضية مختلفة وتاريخ مختلف، وبناء على ذلك لنا الحق فى مستقبل مختلف».

هذا الكلام الذى يقوله «هنتنجتون» يحتاج إلى وقفة وتحليل واع، فهو يخلط كل الأشياء ببعضها البعض وعن عمد، فهو تارة يعتمد على آراء تيارات متشددة، وهى بالطبع لا تعبر عن أغلبية العرب والمسلمين، بل ويتخذ آراء راشد الغنوشى أحد قيادات الحركة الأصولية التونسية، وأيضا بعض المطبوعات المتأسلمة كمرجع له وتأكيد لنظريته، وهى بالطبع لايمكن بأى حال من الأحوال أن تكون اللسان المعبر عن واقع الحال فى الوطن العربى أو الأمة الإسلامية، هذه واحدة .

الأمر الثانى أنه يخلط أيضا ما بين الحق فى الخصوصية الثقافية والحضارية والاستقلال السياسى، وبين العدوانية ورفض الآخر. فليس معنى أن تكون لنا قيمنا الثقافية والاجتماعية الضاربة فى عمق جذور حضارتنا وتاريخنا أن نكون أعداء لأى أحد، وإلا كان الموقف الفرنسى من اتفاقية الجات ووضع تحفظات وقيود للحفاظ على هويتها الثقافية هو عداء أيضا للثقافة الأنجلوسكسونية «!» لكنها الطريقة المعتادة لهنتنجتون فى قلب الأمور والتغاضى عن الحقائق والثوابت من أجل هدف واحد فقط، وهو تكريس الهيمنة الثقافية الأمريكية، واعتبار أية حضارة خارجة عنها هى العدو، وهذا أمر لايقبله أى شخص يعمل عقله ويحتكم إلى المنطق.

حالة شبه حرب!

ولعل أبلغ دليل على عنصرية هنتنجتون يظهر فى قوله :« إن القيادات الأمريكية تدعى أن المسلمين فى شبه الحرب هذه (يقصد حالة الصراع التى يزعمها بين المسلمين والغرب) هم جماعات صغيرة، وأن استخدام هذه الجماعات للعنف قد رفض من الأغلبية العظمى من المسلمين المعتدلين، ربما هذا صحيح، ولكن لا توجد دلائل تؤيده.

وحول نتائج الحرب الأفغانية ضد الوجود السوفيتى يقول هنتنجتون : «لقد تركت الحرب وراءها تحالفا من المنظمات الإسلامية يهدف إلى تعميق الإسلام ضد كل القوى غير الإسلامية، وتركت ـ أيضا أعدادا هائلة من المقاتلين المدربين ومعسكرات وتسهيلات استراتيجية وشبكة علاقات إسلامية ومنظمات وكميات هائلة من المعدات الحربية تتضمن حوالى ٣٠٠ إلى ٥٠٠ صاروخ ستنجر، وأكثر من ذلك كله ثقة عالية فى الذات، وقوة دفع هائلة للتحرك لتحقيق انتصارات أخرى، والاعتقاد فى الجهاد الدينى والسياسى للمتطوعين الأفغان جعل معلقا أمريكيا يقول عنهم فى عام ١٩٩٤ :«معصومون من الخطأ، هزموا واحدة من القوى الكبرى والآن يعدون للأخرى». لقد أصبحت الحرب الأفغانية حربا حضارية، لأن المسلمين فى كل مكان احتشدوا ضد الاتحاد السوفيتى.

يلاحظ هنا أن هنتنجتون تجاهل تماما أن من قام بخلق هؤلاء المقاتلين هم العالم الغربى وبالتحديد أمريكا، وأن تلك الحرب لم تكن أبدا حربا حضارية كما يزعم، بل كانت صراعا بين قوتين عظميين، واستغلالا للإسلام بشكل غير مسبوق من قبل أمريكا لتحجيم التوسع السوفيتى الذى كان يهدد المصالح الأمريكية فى الشرق. كما أن واقع الحال الآن بين فصائل هؤلاء المقاتلين الذين تحولوا من محاربتهم للشيوعية إلى قتال مرير بين بعضها البعض ، لا يمكن أن يعبر أو يوصف بأنه صراع حضارى إسلامى، كذلك فإن صواريخ « ستنجر» وهى صواريخ حديثة مضادة للطائرات قدمتها واشنطن للأفغان فى الوقت الذى لم

تكن فيه متاحة لدول أوروبية حليفة، ما معنى ذلك؟!

يضاف إلى ذلك؛ النار التى اكتوت بها الدول العربية من جراء عودة من أطلق عليهم اسم «الأفغان العرب». والتى كانت نتيجة مباشرة لاستغلال أمريكا للإسلام فى صراعها السياسى والعسكرى مع الاتحاد السوفيتى، ولم يكن هذا الاستخدام ـ يوما ما ـ تعبيرا عن واقع حضارى إسلامى، وإلا كانت عودتهم إلى بلادهم العربية محمودة، ولكانت عواقب هذه العودة بشرى خير للوطن العربى. لكن الواقع غير ذلك، ومايحاول إثباته هنتنجتون من هذا الكلام هو التنصل الغربى والأمريكى على وجه التحديد من المسئولية عن زرع بذور العنف والتطرف داخل عقول هؤلاء الشباب من أجل مصالح تخدم بالدرجة الأولى المصالح الأمريكية!

ثم يصف بعد ذلك هنتنجتون حرب الخليج الثانية بأنها حرب حضارية أخرى، لأن الغرب تدخل فى صراع إسلامى، والأغلبية الساحقة من الغربيين أيدوا هذا التدخل، والمسلمون فى أنحاء العالم احتشدوا ضد هذا التدخل الغربى والذى رأوه حربا ضد المسلمين من الإمبريالية الغربية ، ويقول : «لقد خلفت حرب الخليج شعورا بالفخر لدى العرب، لأن صدام حسين هاجم إسرائيل؛ ووقف فى وجه الغرب، كما خلفت فى ذات الوقت شعورا كبيرا بالخزى والاستياء من وجود القوات الغربية فى الخليج وسيطرتها على تلك المنطقة، مما يدل على أن العرب أصبحوا غير قادرين على تحديد مصيرهم، خاصة أن الكثير من الدول العربية علاوة على الدول المصدرة للبترول وصلت إلى مستويات اقتصادية واجتماعية متقدمة، حيث أصبحت الهياكل الحكومية الأوتوقراطية غير ملائمة، ومن ثم أصبح ترسيخ الديمقراطية أكثر قوة».

وهناك بالفعل بعض الانفتاحات فى النظم السياسية العربية، والتى استفادت منها الحركات الإسلامية بشكل رئيسى، بمعنى آخر زادت القوى الديمقراطية في العالم العربى ضد القوى السياسية الغربية، وربما تكون هذه ظاهرة عابرة، ولكنها بالتأكيد تعقد العلاقات بين الدول الإسلامية والغرب.

كل إيجابياتنا.. عداء للغرب

لم تقف محاولات هنتنجتون عند حد تشويه الحضارة الإسلامية والعربية، بل إنه يطالب بشكل مفضوح بأن تتوقف حركة المد الديمقراطى داخل الوطن العربى تحت مزاعم أن وجود هذا المد أدى إلى سيطرة الحركات الإسلامية على نظم الحكم. وهذه مغالطة مكشوفة تماما يحاول أن يثبت من خلالها أن العرب سواء كانوا تحت نير نظم سياسية ديكتاتورية أو ديمقراطية، فالمحصلة واحدة، وهى العداء للغرب، ولم يعرِّف هنتنجتون مفهوم العداء للغرب؟!

فهل الحفاظ على الهوية الثقافية والدينية عداء للغرب ؟

وهل محاولة النهوض بالأمة عداء للغرب؟

وأين هى تلك الحركات الإسلامية التى تسيطر على الأنظمة العربية؟

من الواضح - فى رأى هنتنجتون - أن العرب إذا تخلفوا أصبحوا أعداء للغرب، وإذا تقدموا ولحقوا بركب الحضارة الحديثة أصبحوا أعداء للغرب، وإذا حافظوا على قيمهم وتاريخهم أصبحوا أعداء للغرب، ولا يبقى لهم سوى القذف بهم إلى المحيط أو الخليج حتى يستريح الجميع ويكفوا عن حديثهم الممجوج عن عداء الغرب.

وفى جزء آخر من كتاب صراع الحضارات يتحدث هنتنجتون عما يسميه الدول الشقيقة ودول الشتات ويعنى بالدول الشقيقة، مجموعات الدول التى تنتمى إلى حضارة واحدة، وفى حالة دخول إحدى هذه الدول فى حرب مع دولة أخرى من حضارة مختلفة، فإن الأمر الطبيعى هو محاولة دول كل مجموعة حضارية أن تساند الدولة التى تنتمى إليها. ولمدة أربعين عاما من الحرب الباردة، وخلال هذا الصراع حاولت القوى العظمى تجنيد حلفاء ومشاركين لتخريب وتحويل أو تحييد الحلفاء المشاركين لقوى عظمى أخرى. وكانت المنافسة أكثر شدة فى العالم الثالث، حيث الدول الجديدة

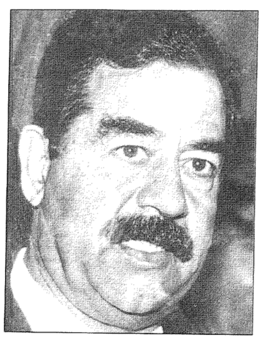
والضعيفة، التى يسهل الضغط عليها من قبل الدول الكبرى للمشاركة فى الصراع العالمى.

ولكن فيما بعد الحرب الباردة، أدت الصراعات الطائفية إلى إبطال صراع القوة الواحدة، حيث تتضمن هذه الصراعات الطائفية جماعات من حضارات مختلفة تميل إلى التوسع والتفاقم. وعندما يصبح الصراع أكثر شدة، نجد أن كل جانب يحاول أن يحشد مؤيدين له من بلدان وجماعات تنتمى إلى حضارته. ويكون هذا التأييد بأشكال مختلفة، سواء رسمية أو غير رسمية، سرية وعلنية، مادية وإنسانية، دبلوماسية مالية أو عسكرية وأحيانا رمزية. ودائما ما يأتى هذا التأييد من واحدة أو أكثر من الدول الشقيقة والدول ذات القرابة، أو الجماعات الشقيقة. وكلما زاد صراع خط الصدع، من المحتمل أن تصبح البلدان الشقيقة متداخلة فى الصراع تأييدا وتدعيما وتوسطا، ونتيجة لوجود «ظاهرة البلاد الشقيقة»، فإن صراعات خط الصدع تكون لديها إمكانية عالية في أن تتفاقم من الصراعات الحضارية المتداخلة، وغالبا تحتاج إلى تعاون حضارى متداخل لاحتوائها وإنهائها. وعلى العكس من الحرب الباردة، فإن الصراع لاينساب من أسفل إلى أعلى، وإنما ينشأ من أعلى إلى أسفل !

ويبدو هذا واضحا فى صراعات الحرب الباردة التى نشأت تدريجيا فى الخليج، القوقاز، والبوسنة. ولاتعتبر أى من هذه الصراعات حربا كاملة بين الحضارات، ولكن فى كل صراع تتورط بعض عناصر السباق الحضارى، والتى يبدو أنها ستكون أكثر أهمية لاستمرار الصراع، الذى من الممكن أن يتزايد مستقبلا.

ثم يفسر هنتنجتون هذه النظرية شديدة التعقيد من خلال طرح العديد من الأمثلة:

أولا: فى حرب الخليج قامت دولة عربية بغزو دولة عربية أخرى، ثم انضمت بعض الدول العربية والغربية ودول أخرى إلى الكويت، بينما ساندت



صدام حسين

صراحة بعض الحكومات المسلمة « صدام حسين »، بل هتفت له نخبة كبيرة وبصورة شخصية، وأصبح لصدام شعبية كبيرة بين قطاعات كبيرة من الشعوب العربية، وساندته الحركات الإسلامية المتطرفة. وحاول صدام حسين ومؤيدوه تعريف الحرب على أنها حرب بين الحضارات، وليست حربا بين العالم ضد العراق. ولقد قال صفار الحوالى عميد كلية الدراسات الإسلامية فى جامعة « أم القرى » بمكة، وذلك من خلال شريط كاسيت وزع بالسعودية: « إن تلك الحرب ليست حرب العالم ضد العراق، لكنهاحرب الغرب ضد الإسلام ». وبمفردات مشابهة أعلن الملك حسين أن هذه الحرب ضد كل العرب وضد كل المسلمين وليست ضد العراق وحده.

كما أن السباق الحقيقى بين الدول العربية والشعوب التى ساندت صدام حسين جعل الحكومات العربية التى وقفت ضد الائتلاف السياسى مع العراق تهدئ من نشاطها وتلطف من تصريحاتها العامة. وعارضت الحكومات العربية أو أبعدت نفسها عن الجهود الغربية التى تلت ذلك للضغط على العراق، بما فى ذلك الحظر الجوى الذى فرض على العراق في صيف عام ١٩٩٢، وأيضا ضرب العراق فى يناير ١٩٩٣، بالإضافة إلى قيام تحالف

سياسى بين الغرب والأتراك والعرب ضد العراق عام ١٩٩٠، والذى أصبح بحلول عام ١٩٩٣ تحالفا بين الكويت والغرب ضد العراق.

وقد أصبح موقف المسلمين مخالفا لتصرفات الغرب ضد العراق، خاصة فى ظل فشل الغرب فى حماية البوسنيين من هجمات الصرب، وكذلك عدم فرض عقوبات على إسرائيل لانتهاكها قرارات الأمم المتحدة.

لقد كان الغرب يكيل بمكيالين، وعالم «صدام الحضارات» هو أيضا من ناحية أخرى، عالم يكيل بمكيالين، فهناك معيار للدول الغربية، ومعيار آخر للدول الأخرى.

وينتقل هنتنجتون إلى مثال آخر لتفسير نظريته المتعلقة بما يسميه «الدول الشقيقة» وكانت أذربيجان هى الحالة التى أراد أن يؤيد بها نظريته إذ يقول:« فى حرب خط صدع أخرى أرثوذكس / مسلمين .. كان المشاركون الرئيسيون هم أرمن إقليم ناجورنو كاراباخ الموجودون فى أذربيجان من ناحية، وشعب أذربيجان من ناحية أخرى، فى قتال الأول للاستقلال عن الأخير».

وكانت حكومة أرمينيا هى المشارك الثانوى فى هذا الصراع، بينما كانت كل من روسيا وتركيا وإيران ذات مستوى ثالث من التدخل، بالإضافة إلى الدور الكبير الذى لعبه شتات أرمينيا فى غرب آسيا وشمال أمريكا.

لقد أيد الأتراك والمسلمون الآخرون أذربيجان، بينما أيدت روسيا الأرمن، ثم استغلت تأثيرهم لمناقشة التأثير التركى فى أذربيجان، وترجع هذه الحرب إلى قرون من الصراع بين الإمبراطورية الروسية والإمبراطورية العثمانية من أجل محاولة سيطرة كل منهما على إقليم البحر الأسود والقوقاز. ويعود العداء الشديد بين الأرمن والأتراك إلى أوائل القرن العشرين منذ قيام الأتراك بتدبير مذبحة للأرمن!

وفى الأحداث الأخيرة التى بدأت عام ١٩٨٨، وهدأت بعد مفاوضات إطلاق النار عام ١٩٩٤، كانت تركيا أول دولة تعترف باستقلال أذربيجان،

وقدمت التأييد المادى والمالى لها، وقامت بتدريب الجنوب الأذربيجانيين. وعندما اشتد العنف فى عامى ١٩٩١ - ١٩٩٢ واستطاع الأرمن التقدم إلى داخل الأراضى الأذربيجانية، أسرعت الحكومة التركية تحت ضغط الرأى العام التركى لتأييد شعب الإخوة الإثنية والدينية، وفى نفس الوقت كانت تخشى تركيا أن يؤدى هذا الصراع إلى تقسيم المسلمين والمسيحيين ، وهذا يعنى تأييد الغرب لأرمينيا، ومن ثم عداء حلفاء تركيا فى حلف شمال الأطنطى. ولكن الحكومة التركية وجدت مصالحها فى مساندة أذربيجان ومواجهة أرمينيا، حيث قال مسئول تركى :« إنه من المستحيل ألا تتأثر عندما يقتل أشقاؤك» وقد قام الرئيس التركى تورجوت أوزال بمنع إمدادات الطعام والإمدادات الأخرى من الوصول إلى أرمينيا عبر الأراضى التركية، والذى كان من نتيجته أن أصبح الشعب الأرمينى على حافة المجاعة خلال شتاء ١٩٩٢ - ١٩٩٣. ونتيجة لهذا حذر المارشال الروسى إيفجى شابوشنكوف بأنه : «إذا تدخل طرف آخر « تركيا » فى الحرب سنكون على حافة حرب عالمية ثالثة »، وبعد هذا التصريح بعام واحد حذر أوزال بأن تركيا ستظهر أصابعها. ولقد أدى كل هذا إلى تفاقم الصراع بين كل من تركيا وروسيا.

على جانب آخر وبصرف النظر عن التأييد الروسى للأرمن، كان هناك تأييد واسع جدا من الشتات الغنى والمؤثر فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، هذا الشتات يتضمن تقريبا مليون أرمنى فى الولايات المتحدة ونصف مليون فى فرنسا، هؤلاء قدموا الإمدادات المالية لمساعدة الأرمن وتجاوز الخط التركى. فلقد وصلت مساهمات الأرمن الأمريكان من ٧٥ إلى ١٥٠ مليون دولار سنويا، وفى ظل ضغوطهم قرر الكونجرس منع أية مساعدة للأذربيجانيين، وجعل أرمينيا هى البلد الثالث التى تتسلم المساعدات الأمريكية، هذا التأييد الواسع من الخارج كان أساسيا ومناسبا، حتى أن أرمينيا وصفت بأنها :« إسرائيل القوقاز»، ومثلما ولدت الهجمات الروسية فى القرن التاسع عشر على شمال القوقاز شتاتا ساعد الشيشان على مقاومة الروس، فإن المذابح التركية فى أوائل القرن العشرين التى حدثت للأرمينيين؛ ولدت شتاتا ساعد أرمينيا على مقاومة تركيا وهزيمة أذربيجان.

المسلمون .. وراء كل الحروب

فى مثال ثالث انتقل هنتنجتون إلى الصراع بين دول الاتحاد اليوغسلافى السابق إذ يقول: لقد كانت يوغسلافيا السابقة المكان الأكثر تعقيدا وفوضوية، وبها منظومة كاملة من حروب خط الصدع فى أوائل التسعينيات، فعلى المستوى الأول نجد فى كرواتيا الحكومة الكرواتية والكروات يحاربون الصرب «الموجودين فى كرواتيا» وفى البوسنة «هرسوكوفنا» نجد الحكومة البوسنية تحارب الصرب والكروات الموجودين فى البوسنة، وفى نفس الوقت نجد أن الكروات والصرب الموجودين بالبوسنة وقد حارب كل منهما الآخر «إنه صراع شديد التعقيد».

وعلى المستوى الثانوى نجد أن الحكومة الصربية قد عززت مشروع «صربيا الكبرى»، وذلك بمساعدة الصرب الموجودين فى كل من البوسنة وكرواتيا. وأيضا تأمل الحكومة الكرواتية فى كرواتيا كبرى من خلال الكروات الموجودين بالبوسنة.

وعلى المستوى الثالث كان هناك حشد حضارى هائل يتضمن ألمانيا والنمسا والفاتيكان ودولا أوروبية كاثوليكية أخرى، وفيما بعد تدخلت الولايات المتحدة نيابة عن الكروات.

على نفس المستوى كانت هناك روسيا واليونان ودول أرثوذكسية أخرى، وجماعات كانت تقف خلف الصرب.

هناك أيضا إيران والسعودية وتركيا وليبيا والإسلامية الدولية والدول الإسلامية ، يقفون خلف البوسنيين المسلمين، الذين حصلوا فيما بعد على مساعدات من دولة من غير الأشقاء حضاريا، وهى الولايات المتحدة.

على جانب آخر وفى نمط عالمى للعلاقات يؤيد فيه الشقيق شقيقه، فإن شتات الكروات فى ألمانيا وشتات البوسنيين فى تركيا قاموا بتأييد بلادهم، أيضا نشطت الجماعات الكنسية والدينية فى كل الجوانب الثلاثة. لقد كانت

تصرفات الحكومات الألمانية والتركية والروسية والأمريكية متأثرة بضغوط الجماعات والرأى العام فى مجتمعاتهم.

وكانت فى المراحل الأولى لانقسام يوغسلافيا ، أن قامت ألمانيا بعرف غير عادى من أجل حث الدول الإحدى عشرة المشاركة فى الاتحاد الأوروبى ليحذوا حذوها بالاعتراف بكل من سلوفانيا وكرواتيا. ونتيجة لتصريح بابا الفاتيكان بمساندة هاتين الدولتين الكاثوليك، فقد اعترف الفاتيكان بهما قبل أن يعترف الاتحاد الأوروبى. وبعد ذلك تبعت الولايات المتحدة المبادرة الأوروبية. وهكذا فقد تجمع ممثلو المبادرة فى الحضارة الغربية وراء أخوتهم الدينية، وبالتالى فقد تقرر أن تتلقى كرواتيا كميات ضخمة من الأسلحة من دول وسط أوروبا وبلدان غربية أخرى.

على جانب آخر فإن حكومة بوريس يلتسين حاولت سلوك طريق وسط، حتى لا يكون تعاطفها مع الصرب سببا فى سوء العلاقات مع الدول الغربية. وقد أدى هذا إلى قيام قوات الروس وعدد كبير من أعضاء البرلمان الروسى بإدانة هذه السياسة، لأن يلتسين لم يكن أكثر اقترابا من مساندة الصرب الأرثوذكس، وفى مطلع ١٩٩٣ كان واضحا أن هناك عدة مئات من القوات الروسية يؤدون خدمتهم العسكرية مع القوات الصربية، بالإضافة إلى إرسال أسلحة وذخيرة للقوات الصربية.

على جانب ثالث، فقد أدانت الحكومات الإسلامية وأيضا الحركات الإسلامية الحكومات الغربية، لمنع الحكومات الإسلامية من الاشتراك فى الدفاع عن البوسنيين المسلمين، كما قام القادة الإيرانيون بحث المسلمين فى كل أنحاء العالم لتقديم المساعدة لإخوانهم البوسنيين، وأيضا أدانت إيران قيام الأمم المتحدة بحظر إرسال السلاح إلى هذه المنطقة. وساندت إيران الجماعات اللبنانية في إرسال رجال حرب العصابات «هكذا يصفهم» لتدريب وتنظيم القوات البوسنية.

وذكر تقرير صدر عام ١٩٩٣ أن هناك ما يقرب من أربعة آلاف مسلم جاءوا من اثنتى عشرة

دولة مسلمة يحاربون فى البوسنة. وقد دفعت الحكومات المسلمة فى السعودية ودول أخرى تحت ضغوط متزايدة من قبل الجماعات المتطرفة فى بلادهم لمساندة البوسنيين بقوة.

وفى نهاية عام ١٩٩٢ كانت المملكة العربية السعودية قد قررت إمداد البوسنيين باعتمادات مالية للأسلحة والإمدادات العسكرية والتى أدت إلى زيادة قدرتهم فى المواجهات العسكرية مع الصرب.

وخلال الثلاثينيات – كما يقول هنتنجتون – أدت الحرب الأهلية الإسبانية إلى تدخل الدول التى تتبع السياسات الفاشية والشيوعية والديمقراطية، والآن فى التسعينيات أدى الصراع اليوغسلافى إلى تدخل الدول المسلمة والدول المسيحية الغربية، والأرثوذكسية، ولم يكن هذا التشابه بلا خطأ، لأن الحرب فى البوسنة متساوية فى حساسيتها تماما كما كان الوضع فى الحرب ضد الفاشية فى الحرب الأهلية الإسبانية. وتعليقا على قول برنارد هنرى «البوسنة هى إسبانيا» قال أحد رؤساء التحرير السعوديين: «الحرب فى البوسنة وهرسوكوفنا مساوية لحرب إسبانيا ضد الفاشية، إن هؤلاء الذين قتلوا ننظر إليهم كشهداء/حاولوا إنقاذ إخوانهم المسلمين».

المثير للدهشة هنا أن هنتنجتون، يذهب فى تفسيره للحرب اليوغوسلافية على أساس أنها حرب دينية، ويقدم دليلا على ذلك ما يسميه بظاهرة الدول الشقيقة لمجرد وجود عدد من المتطوعين المسلمين فى البوسنة، وإذا كان الأمر كذلك: فلماذا لم يحتشد المسلمون فى الحروب العربية الإسرائيلية؟! ولماذا لم يحتشدوا حتى الآن لتحرير القدس أو فك الحصار عن العراق وليبيا؟!

لقد تجاهل هنتنجتون ـ حسبما يقول د.جعفر صاحب(*) ـ أن العامل الدينى دائما يستخدم كواجهة تستخدمها أطراف الصراع المختلفة لحساب قوى خارجية، فلقد تم استخدام العامل الدينى لتفكيك الاتحاد اليوغسلافى السابق، وذلك من أجل تحقيق مصالح قوى خارجية لم تكن راغبة فى وجود هذا الكيان وبالشكل الذى كان فى عهد جوزيف تيتو. والواقع يقول إن الشارع اليوغسلافى يرفض التفرقة الدينية أو العنصرية، وأبسط دليل على ذلك وجود سبعة ملايين

زيجة مختلطة دينيا داخل يوغوسلافيا السابقة التى لايزيد عدد سكانها على أربعة وثلاثين مليونا، أى أن هذا الزواج المختلط يساوى ثلث سكانها تقريبا.

فنجد ديانة الزوجة غير ديانة الزوج وزوج الابنة من ديانة ثالثة.

نعود مرة أخري لنظرية هنتنجتون عن ظاهرة الدول الشقيقة إذ يقول : قد تحدث الصراعات أيضا بين الدول والجماعات داخل نفس الحضارة، لكنها تكون أقل حدة وأضيق انتشارا عن الصراعات بين الحضارات المختلفة.

ومن أمثلة ذلك ما حدث عامى ١٩٩١ ، ١٩٩٢ عندما تم التحذير من إمكانية حدوث صراع عنيف بين روسيا وأوكرانيا حول إقليم «كريميا» وأسطول البحر الأسود والأسلحة النووية وأيضا بعض القضايا السياسية. وإذا كانت الحضارة هي التى توضع في عين الاعتبار ، فإن الاحتمال بحدوث عنف بين أوكرانيا وروسيا لابد أن يقل، لأن كلا منهما ينتمى إلى الحضارة السلافية وكليهما أرثوذكسى، وبينهما صلات قرابة ونسب منذ قرون طويلة، ومنذ عام ١٩٩٣، وعلى الرغم من كل أسباب الصراع، فإن قادة البلدين كانوا يتفاوضون بصورة فعالة لنزع فتيل الأزمة بين البلدين ، بينما كان هناك قتال خطير بين المسلمين والمسيحيين فى مناطق أخرى من الاتحاد السوفيتى السابق، وأيضا معارك بين المسلمين والأرثوذكس والمسيحيين الكاثوليك فى دول البلطيق «لتوانيا، لاتفيا، وأستونيا»، لذلك فإنه كان من غير الممكن أن ينشب صراع بين الروس والأوكرانيين.

وبعيدا عن هذه الأمثلة، . فإن هنتنجتون يرى أنه من المحتمل خلال السنوات القادمة أن تتصاعد الصراعات المحلية إلى حروب كبرى، وسيكون هذا عند الخطوط الفاصلة و«خطوط الصدع» بين الحضارات، كما فى حروب البوسنة، والقوقاز، فالحرب العالمية القادمة، لوكانت هناك حرب قادمة، ستكون حربا بين الحضارات!

خافوا

تموتوا

في النهاية دعونا ننظر بموضوعية إلى ظاهرة الإرهاب التى شاهدنا فصولا منها بين الحين والحين جميعها تهدف إلى اغتيال سبل الحياة بالنسبة لنا، واغتيال رموز الدولة وصفوتها كما لو كانوا يريدون لنا أن نكون « مسخا » بلا عقل، وبلا هدف وبلا مستقبل.

أقول لننظر بموضوعية، بمعنى عدم التعامل مع «الأعراض» الممثلة فى أعمال وحشية إجرامية يروح ضحيتها شرفاء وأبرياء، فكلنا بلا استثناء نعرف ذلك، والواجب هو أن ننظر إلى الأسباب الحقيقية ونقضى عليها. وحينئذ فقط لن نرى بلطجيا، أو عاطلا يمسك بـ« قرن غزال » يطعن بها عملاقا عالميا مثل نجيب محفوظ، بعد أن فشل فى اختطافه، أو حتى يطعن بها جنديا نظاميا بسيطا يحمل شرف الدولة، ويقوم بصون الأمن فيها، أو ما هو أخطر من ذلك بكثير عندما نري مجموعة من القتلة المرتزقة يحاولون اغتيال رئيس الدولة الذي قدم لوطنه ما لم يقدمه ملك أو رئيس أو زعيم آخر علي مر تاريخ طويل.

بداية ينبغى أن نشطب ونستبعد ظاهرة الفقر تماما من قائمة الأسباب، وذلك لأن الشواهد والأرقام والإحصائيات تؤكد كلها أن أحوالنا الاقتصادية فى الثمانينيات والتسعينيات هى أفضل بكثير مما كانت عليه فى السبعينيات، التى كانت أفضل بمراحل مما كانت عليه فى الستينيات، وذلك رغم الزيادة الهائلة فى تعداد السكان التى طرأت على مصر فى النصف الثانى من القرن العشرين.

وأعتقد أن أحدا منا لم ينس أننا دخلنا حرب أكتوبر - كما أعلن الرئيس الراحل أنور السادات - وخزانتنا كانت صفرا «على حد تعبيره» وربما لا

يعرف الكثيرون أن قواتنا المسلحة - على وجه التحديد قواتنا الجوية كانت تحتاج لقطع غيار معينة وحيوية للدخول فى حرب التحرير، على ما أذكر أن ثمنها لم يكن يتجاوز ٢٥٠ ألف دولار - وقبل أيام من الحرب بعث السادات بأحد أعضاء مكتبه إلى دولة عربية مجاورة لاستدانة هذا المبلغ الزهيد الذى نستطيع أن نجده الآن فى أى محل تجارى متوسط النشاط! وأكثر من هذا - لمن لا يتذكر - أننا خلال حرب الاستنزاف كنا لا نجد دجاجا أو لحوما، لأن كل إنتاجنا منها كنا نوفره لجنودنا الرابضين على خط النار، مكتفين. نحن سواد الشعب. «بالخبز الأسود» الذى كان يسخر منه بعض الأشقاء ويعيروننا به.

دعونا نستبعد تماما ظاهرة الفقر ونغمة الأحوال الاقتصادية السيئة، فكما ذكر صحفى أمريكى بارز زار مصر فى أواخر الستينيات وقال: إن الشوارع قذرة والمجارى تطفح فى الميادين، والمصاعد معطلة، والمياه لا تصل إلى الأدوار العليا، والتليفونات لا تعمل مطلقا.. و،و، و، ثم لخص الموقف كله قائلا: «ليس هناك أوروبى واحد يحلم بأن يستطيع أن يتحمل المشاق التى يتحملها المواطن المصرى فى كل أوجه الحياة اليومية».. دعونا نستبعد تماما ظاهرة الفقر و«أغنية» الأحوال الاقتصادية السيئة كسبب من أسباب الإرهاب، بل دعونا نقتنع جميعا بأن أول قائمة الأهداف التي يرمى الإرهاب إلى تحقيقها هو إفقار مصر والعمل على تدهور أحوالها الاقتصادية التى انتعشت بشكل واضح خلال سنوات مبارك.

وأكثر من هذا، أن الظاهرة برمتها، وأعنى ظاهرة الإرهاب، لم تنبع من الداخل، ولكن بشهادة كل من تم إلقاء القبض عليهم، فإن التعليمات تأتى من الخارج، والأفكار والنظريات تأتى من الخارج (مثل نظرية صدام الحضارات التى أفردنا لها جزءا كبيراً من هذا الكتاب)، والرؤوس المدبرة تقيم بالخارج. والأموال القذرة تأتي من الخارج، والأفكار الشاذة تنبع وتترعرع في الخارج، ولو أنها تجد بعض المروجين لها فى الداخل، ومعظم الأسلحة والأجهزة يأتى أيضا من الخارج، وهكذا يقتصر دور «الداخل» على

حفنة من المصريين تم تضليلهم إلى حد كبير، وشراؤهم تماما بالأموال حتى يقوموا بما يقومون به من أعمال؛ تميز المصريون على مر التاريخ بعدم الإقدام عليها مهما كانت الأسباب ومهما كانت الظروف.

وليس أدل على عراقة المصريين وعدم ميلهم للعنف، مما يحدث حاليا من عدم التعاطف مع الإرهابيين بأية صورة من الصور، بل إن المواطن المصرى العادى قام بدور عظيم فى الكشف عن أوكار الإرهاب وممارسيه. ومن المبادئ المعروفة جيدا أنه ليست هناك حركة أو تنظيم سرى يمكن أن يلقى أى نجاح فى أى مجتمع دون تعاطف أبناء هذا المجتمع مع آراء واتجاهات وأهداف هذا التنظيم السرى.

وهنا ينبغى أن يعرف أن هناك فرقا هائلا بين التطرف والإرهاب، ولا ينبغى فى أية لحظة أن نخلط بين هاتين الظاهرتين، فالتطرف قد يلحق بأى من أوجه النشاط الإنسانى وهو ببساطة إفراط ضار فى مجال يكون فيه الاعتدال فضيلة، بمعنى أن التدين فضيلة كبرى ولكن الإفراط والتطرف فيه قد يلحق أضرارا هائلة بالإنسان، والمجتمع، بل وفكرة الحياة بأكملها، وفى هذا الإطار ظهرت فكرة الأصولية وهى اتجاه فكرى ظهر فى الأصل فى العالم المسيحى فى بداية القرن الحالى، وعلى وجه التحديد فى عام ١٩٠٩عندما شرع الفكر الغربى والعالمى فى إعادة تشكيل تعاليم المسيحية على ضوء تطور الحياة والتاريخ، وتغير الزمن بسبب الاكتشافات العلمية الجديدة التى تكاثفت مع بداية عصر النهضة ومع بداية القرن العشرين.

وهناك فلسفة مؤداها أن الأصوليين بشكل عام هم مجموعة من البشر تفتقر القدرة على التكيف وتغيير مفاهيمها بما يتلاءم مع الاكتشافات الجديدة والتطورات العلمية، وذلك ببساطة لأنهم يفتقرون إلى القدرة على التطور مع الواقع الجديد، وعلى سبيل المثال فإن كثيرين من الناس رفضوا فى نهاية الستينيات تصديق أن هناك رائد فضاء أمريكيا اسمه «نيل أرمسترونج» هبط بمركبة فضائية فوق سطح القمر، بل مازال هناك حتى يومنا هذا من لايعترف ولا يصدق هذا الإنجاز العلمى الباهر، وحتى داخل

المجتمع الأمريكى. وقد أجرت إحدى شبكات التليفزيون حديثا مع واحد من الهنود الحمر ظل يسخر ويضحك من هذه الفكرة مؤكدا أنه لو حاول أحد أن يقوم بهذه المغامرة المجنونة فإن الأرض ستتدحرج وسيسقط القمر فوق الأرض!

من هنا كان «الميكانيزم الدفاعى» لهؤلاء الذين يفتقرون إلى القدرة على التكيف مع الاكتشافات والحقائق العلمية الجديدة، هو «التقهقر» والانسحاب إلى الماضى حيث يجدون ملاذهم فى أمجاد تاريخية قديمة، ويعيشون فى ماض مأمون ومضمون بدلا من المغامرة بمواجهة المستقبل والجديد الذي لا يعلمون عنه شيئا. ومن هنا فإن الأصوليين قد ينعزلون عن المجتمع ويعيشون عالما مأمونا غير العالم الجديد الذى يتطلب التحدى والمغامرة والرغبة فى اكتشاف الجديد من أجل حياة أفضل للجميع، ينسحبون إلى الخلف وينعزلون ويدافعون عن عزلتهم هذه بكل قوة.

وقد أدى الواقع المرير الذى خلفته الظروف الاقتصادية الصعبة التى انتهت بما يسمى بـ «الكساد العظيم» فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك الواقع المرير الذى خلفته الحربان العالميتان الأولى والثانية، هذه الأحداث المريرة أدت معا إلى تلاشى اختفاء الاتجاه الأصولى الذى ظهر فى العالم المسيحى الغربى.

أما الإرهاب فهو شىء آخر تماما، والتعريف العلمى لهذه الظاهرة هو أن الإرهاب عبارة عن استخدام محسوب من العنف - بما فى ذلك القتل واستخدام القنابل والمتفجرات وعمليات الاختطاف - لترويع الناس أو مجتمع ما ، وعادة ما يكون الهدف من وراء ذلك هو الوصول إلى أهداف سياسية، وهكذا نجد أن تلك التسمية هى التى تنطبق على ما شاهدناه فى وطننا خلال السنوات الأخيرة، فقد بدأوا باختطاف الشيخ الذهبى رحمه الله، وقتلوا العشرات من رجال الأمن ورجال الفكر ورموز الدولة واستخدموا الكثير من قنابل «الرولمان بلى» و«المسامير»، كما لو كانوا يطبقون حرفيا التعريف العلمى لظاهرة الإرهاب، وبالتالى فإن هدفهم هو تخويف المجتمع

المصرى، وهدفهم سياسى بحت هو فى المقام الأول الوثوب إلى السلطة.

تؤكد الأحداث والاعترافات والأدلة أن الذين ينفذون هذه العمليات الإرهابية كلهم من المصريين، وكلهم يمرون بظروف اقتصادية واجتماعية صعبة، فهم إما عاطل، أو طالب لم يكمل تعليمه، أو مهنى لا تجد مهنته رواجا، وبالتالى فهو يعانى من حاجة إلى المال فيأتون؛ إليه بالمال القذر من الخارج الذى غالبا ما يختفي معظمه قبل الوصول إلي منفذى جرائم الإرهاب، وذلك بالإضافة إلى بعض الأكاذيب والأفكار المنحرفة، التى هو على استعداد لتصديقها ليبرر لنفسه الجريمة التى سيرتكبها فى حق وطنه وشعبه، بعد أن تحول إلى آلة غبية فى أيدى الأشرار والجهلاء والعملاء الذين يدفعونه لضرب قلب الأمة العربية و«قلب أمة الإسلام» وللأسف الشديد بأموال عربية وإسلامية. وحتى تزداد المرارة وصل الأمر إلى أن قام بعض ممن تسللوا إلى حكم السودان «الشقيق» الذى يربطه معنا شريان الحياة الأبدى وقام هذا البعض بتدريب وإيواء أولئك الإرهابيين الذى خرجوا لأول مرة من مصر كمتطوعين للدفاع عن حرية أفغانستان وساهمت فى ذلك - كما نعرف - أجهزة مخابرات أجنبية على رأسها جهاز المخابرات المركزية الأمريكية، الذى أيقن أن الإسلام هو الحاجز القوى الذى تحطم عليه النفوذ السوفيتى فى مصر، وبالتالى فى المنطقة كلها، وأرادوا استغلال هذا العداء العميق بين الشيوعية والإسلام، لضرب الوجود السوفيتى فى أفغانستان.

وإذا بالأحداث تتطور على عكس ما خططت هذه الأجهزة المخابراتية العبقرية، وينهار الاتحاد السوفيتى بأكمله، وسرعان ما تحول هؤلاء المتطوعون المدافعون عن الحرية إلى إرهابيين على أيدى حفنة من الأثرياء المنبوذين من أوطانهم، بعد أن أيقنوا فجأة أن السلاح فى أيديهم بوفرة والرجال الذين يحملونه فى حاجة مستمرة إلى الأموال السهلة، والأموال مكدسة لديهم فى بنوك هنا وهناك، تصوروا بعد ذلك أن بإمكانهم تغيير نظام الحكم فى المنطقة كلها، وكان من الطبيعى وجود تحالف بينهم وبين تنظيمات دينية قديمة فى المنطقة، كانت تعيش فى حالة كمون منذ سنوات

طويلة فى انتظار فرص سانحة لممارسة نشاطها من جديد.

وكانت التسهيلات التى حصل عليها هؤلاء من الرئيس الراحل أنور السادات الذى رأى بدوره أن الإسلاميين قادرون على وقف وتهديد النشاط الشيوعى فى مصر، وجاءت بعد ذلك التجربة الديمقراطية والحريات التى أتاحها الرئيس مبارك عِلاجا لسلبيات كثيرة تربعت على مسرح الأحداث فى مصر بسبب نظام الحكم الشمولى، وتكميم أفواه الجميع، كانت التجربة الديمقراطية الجديدة فرصة فريدة لخروج « خفافيش » اللعبة السياسية من أوكارها.

وبدأ المخطط الرهيب الذى يهدف بالدرجة الأولى إلى الوصول إلى السلطة، ودعونا نترك جانبا كل المزاعم ومظاهر الخداع والنفاق التى يغلفون بها دعوتهم وفى ذلك المخطط الذى بدأ بطيئا حثيثا، دعونا من الكلام عن صغائره.

ولكننا سنتناول، أساسا، الجوانب الخطيرة والجهنمية من هذا المخطط الشيطانى الذى ظهر وبدأ يتبدد دون أن يلحظه الكثيرون فى معركة من أخطر المعارك التى خاضتها مصر فى العصر الحديث.

كان المخطط يهدف إلى إحداث فرقة بين عنصرى الأمة: المسلمين والمسيحيين. ونستطيع القول أن هذا البند قد فشل تحقيقه تماما ولن ينجح إطلاقا فى المستقبل، أساسا بسبب وعى المصريين مسلمين ومسيحيين، وبسبب الروابط الأخوية الحقيقية التى تربط بينهما على مر التاريخ، وبسبب أن مصر كانت ومازالت بلد السماحة والتسامح، وأن مصرية كل من يعيش فوق ترابها تعنى الكثير.

وكان المخطط يرمى إلى السيطرة على اقتصاد الدولة عن طريق بنوك مشبوهة (كلها ذات أصول عربية) وشركات توظيف الأموال التى اندفع نحوها المصريون بسذاجة شديدة سرعان ما تبددت بسبب أحداث معينة وتدخلت الحكومة بحزم بعد أن وعى الجميع بحقيقة « الملعوب » على حد تعبير المرحوم الدكتور فرج فودة وتبددت إلى الأبد تلك المحاولة التى لن

تلقى يوما أى إقبال من أى مصرى.

وبذكر الدكتور فرج فودة نكون قد لمسنا جزءا آخر من هذا المخطط الذى يرمى إلى إرهاب أصحاب الفكر والقلم، وتصفية من يبدى عنادا وإصرارا منهم كما حدث مع فرج فودة، بل إن هذا الإرهاب شمل الفكر الحر بشتى فروعه حتى إذا كان صاحبه قد لقى وجه ربه منذ سنوات مثلما حدث مع عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين (الذى قال لى صديق ولا أعرف مدى صحة ذلك أن أيا من كتب طه حسين لا تدرس فى أى من مراحل التعليم) وبالطبع فإنه بإرهاب وتصفية عقول الأمة نعلم جميعا ماذا سوف يتبقى لنا ؟

وشرع المخطط فى اختراق كلية التربية، كما اعترف بذلك بشجاعة الدكتور حسين كامل بهاء الدين، وهى الكلية التى تمدنا بالمدرسين الذين تحول البعض منهم إلى داعين للتطرف داخل كل مراحل التعليم، ومن هنا رأينا بدعة عدم أداء تحية العلم، ثم بعد ذلك ظهور الحجاب فجأة على رؤوس كل تلميذات المدارس حتى أولئك اللواتى لم تتجاوز أعمارهن عشر سنوات، وهنا ابتلع الإعلام الغربى هذا المظهر الخادع وتصور العالم كله أن مصر تحولت إلى «إيران الخومينى»، ولم يكن أحد من هؤلاء ليتصور أن ظهور الحجاب بهذه الكثافة لم يأت إلا نتيجة إرهاب وتخويف ووعيد.

ولما كانت مصر هى أول وأقدم دولة فى التاريخ فإن السلطة فيها كانت قوية على الدوام، وإلى فترة قريبة كان أى مواطن مصرى مهما عظم شأنه يحكم عليه بالسجن ستة أشهر لو تجرأ ومس بيديه رجل شرطة وقطع له «زرارا» من سترته.. فالدولة قوية فى مصر، والسلطة مقدسة، فكان أن شرع المخطط الشيطانى فى ضرب رجال الأمن وقتلهم عشوائيا فى مدن وقرى ونجوع مصر، حتى يتم تحييدهم فى هذا الصراع، بعد ترويعهم هم وذويهم ومن ورائهم ترويع الشعب كله الذى يرى أمام عينيه رموز السلطة والقوة تتساقط برصاص الإرهابيين.

ولأن الفقر وعدم الأمان هما المناخ المثالى لإشاعة عدم الاستقرار،

أصبحت السياحة بعد ذلك هدفا أساسيا، إذ أن ضرب هذا المجال من شأنه التأثير على اقتصاد الدولة، والدخل اليومى لفئات عديدة من المجتمع، ظن مخططو الإرهاب أن هذه الفئات ستخرج حتما للتصادم مع الدولة، فإذا بها جميعا تتكاتف مع الدولة والسلطات للتصادم مع الإرهاب ومن يقفون وراءه.

حاول المخطط جاهدا اختراق صفوف القوات المسلحة ولكنه فشل تماما ولن ينجح. وحاول فى الوقت ذاته اختراق كافة مؤسسات الدولة وخاصة تلك التى تؤثر بشكل مباشر على أوجه الحياة، بل إنهم استخدموا فى محاولاتهم أحدث الوسائل العلمية وفى مقدمتها «الحاسبات الإلكترونية» فيما عرف بقضية «سلسبيل» التى كان الكشف عنها إنجازا كبيرا لسلطات الأمن فى مصر.

فى هذه المحاولات وغيرها كثير، نسى المخطط أو تجاهل حقيقة أن مصر هى أقدم وأول دولة فى التاريخ، وأنها تضم كوادر عظيمة التأهيل فى كافة المجالات وقد تكون هذه الكوادر غير ملحوظة، ولكن عندما تأتى لحظة الخطر تنشق الأرض ويظهر الرجال. كل ذلك مقدور عليه فالسلطة فى مصر أقوى من كل هذه المناورات وهذه المحاولات، ولكن الخوف كل الخوف من المحاولات الميكافيللية التى تأتى من الخارج كما شرحنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب، وكما شرحنا بالتفصيل أثناء تناول كتاب صمويل هنتنجتون: «صدام الحضارات»لأن الهدف هنا هو تأليب العالم كله على الإسلام وعلى المسلمين، ولأن الوسيلة فى ذلك غالبا ما تكون وسيلة ذكية تخترق صفوف دفاعاتنا بسهولة.

وعلينا أن نحذر تماما من هذه «الصدامات» بقدر من الذكاء والحنكة يعملان علي تحييد «الدهاء» الذى تقوم عليه مثل هذه النظريات والحروب التي تستهدف الإسلام.

أما بالنسبة لحملة الكلاشنكوف و«قرن الغزال» الذين يعيشون بيننا فعلينا أن لا نذعن لهم يوما ولا نخشاهم. وعلينا بعد ذلك أن نختار: إما الخوف

والموت بعد ذلك.، وإما الشجاعة والحياة.

الخوف يقترن دائما بالموت.

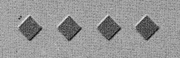
والشجاعة تقترن دائما بالحياة

وقد أراد سبحانه وتعالى لنا الحياة. ■

الإسلام وحدائق الشيطان

رقم الإيداع	١٤١٨٥/٢٠٠٠
الترقيم الدولى	977-201 - 099 - 6





هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوچية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك





٢٥٠
قرشا

